فِي رِحَابِ التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ

أ.د / عَبْدُ الْحَمِيدِ مُحْمُودْ الْبَطَاوِيُّ
أَسْتَاذُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
بِكُلِّيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
جَامِعَةُ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه، أما بعد فهذه محاضرات في التفسير الموضوعي وهذا النوع من التأليف من الصعوبة بمكان قلما تجد مؤلفا التزم فيه مؤلفه بشروط هذا الفن فتجد البحث قد خرج إلى فن الوعظ والإنشاء والخروج من موضوعه المخصص إلى موضع شبيه وغير ذلك مما سننبه إليه في حينه ومع ذلك فلابد من النيل من بركة هذا العلم والمساهمة فيه ببضاعتى المزجاة ملتزما بشروطه بقدر طاقتي وهى محاولة ولبنة عساها تفيد طلبة العلم وقد تكلمت عن بعض المواضيع التي تساهم في بناء المجتمع المسلم الصالح فتكلمت عن التلطف والاستئناس وعن التوبة و الوحدانية و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنماذج للتفسير المنوضوعى الوسيط و تكلمنا باختصار عن الإخلاص في القرآن كنموذج للتفسير الموضوعي االوجيز.

والله المستعان وعليه التكلان

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذا العلم وينفع به أمة الإسلام .

عبدالحميد البطاوى

تمهيد

أنواع التفسير:-

ينقسم التفسير باعتبارات مختلفة، فإذا نظرنا اعتبار المفسر لترتيب الآيات ومتابعة ألفاظه وجمله متابعة لا تخرجه عن نظمه في التلاوة و لا عن وضعه في المصحف ... فبملاحظة ترتيب التلاوة ورسم المصحف وُجد نوعان من التفسير هما التفسير التحليلي و الإجمالى وبملاحظة اتحاد الموضوع الواحد من الآيات المتفرقة... وجد نوع ثالث من التفسير هو التفسير الموضوعى[1].

ويمكن رد أنواع التفسير إلى ضابط جامع يردها إلى نوعين اثنين:-

١- التفسير الموضعي ٢- التفسير الموضوعي.

فالتفسير الموضعي الذي يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم ،متتبعاً ترتيب الآيات في سورها.وهذا اللون قد يكون بالمأثور، أو بالرأي المحمود وقد يكون تحليلياً عند التفصيل، أو إجمالياً عند الاختصار وقد يكون مقارناً إذا اتبع المفسر طريق الموازنة.

و التفسير الموضوعي الذي يلتزم المفسر موضوعاً لا موضعاً بعينه...وقد تَدخُل ألوان التفسير السابقة لخدمة هذا الموضوع ...فإذا احتاج الموضوع إلى شرح مفردة وتراكيب بعض الآيات دخل التفسير التحليلي وإن احتاج إلى تقرير المعنى العام لبعض الآيات دخل التفسير الإجمالي وإن جاء برواية صحيحة دخل التفسير بالمأثور، وإن نظر المفسر في الموضوع، وتدبر جوانبه واستنبط منه استنباطاً علمياً بشروطه المقررة دخل الرأي

[1] التفسير الموضوعي في القرآن الكريم للدكتور أحمد السيد الكومي والدكتور محمد أحمد قاسم صـ٦ المدخل إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للأستاذ الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد صـ١٧ ،١٨ دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

المحمود، وبذلك تجتمع ألوان التفاسير جميعاً، وتتعاون ولا تتعارض ،وتأتلف لخدمة القرآن العظيم ولا تختلف[2].

تعريف التفسير الموضوعي

يتكون مصطلح التفسير الموضوعي من جزئين فهو" مركب تركيباً وصفياً"فقبل تعريفه لابد من معرفة جزأيه : التفسير و الموضوعي

١- تعريف التفسير في اللغة تدور مادته حول : البيان والكشف والإيضاح.

وفي الاصطلاح " علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[3].

٢- تعريف الموضوعي: الموضوعي نسبةٌ إلى الموضوع، والموضوعُ مشتقٌ من الوضع، وأصله من "وَضَعَ" الواو والضاد والعين: أصلٌ واحدٌ يدل على الخفض للشيء وحطه، وهو أعمُّ من الحطِ، وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، ومنه الموْضِعُ، قَالَ تَعَالَى : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ).النساء: ٤٦ ،والمائدة:١٣، ويقال: وضَعَتِ الحمل فهو موضوع، قَالَ تَعَالَى : (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ). الغاشية:١٤، وقال(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ) الرحمن : ١٠.فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق ولكن ما علاقة ذلك بعلم التفسير الموضوعي ؟ يقول شيخنا العلامة الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد مجيبا على هذا التساؤل : "الموضوع عند علماء التفسير: القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن ولها جهة واحدة تجمعها عن طريق المعنى الواحد أو الغاية الواحدة"[4]يقول-حفظه الله-: "وقد رجعتُ إلى القرآن الكريم فوجدتُ من معانيها: إيجابُ الشيء وإثباته في المكان، مثل (وَنَضَعُ

---

[2] المدخل إلى التفسير الموضوعي ص١٨

[3] مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/٣

[4] المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٢٠

الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ).سورة الأنبياء، الآية ٤٧، فيكون وصف التفسير "بالموضوعي" ملحوظاً فيه هذا المعنى؛لأن المفسر يثبت كل آية في موضعها من المعنى الكلي للقضية التي يبحثها.وبالتدقيق في كتب اللغة وجدت إشارةً إلى تصحيح إطلاق "الموضوع" على القضية الواحدة... ، يقال ناقة واضعة: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح،فهي واضعة، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، ومنه المَوْضِعُ،وكذلك موضوعة[٥].فعلى هذا يكون "الموضوع" هنا بمعنى الشيء الذي له صفةٌ معينة، وأُلزِمَ مكاناً معيناً، لا يبرحُهُ إلى غيره وهذا المعنى ملحوظٌ تماماً في تقييد التفسير "بالموضوعي" لأنه يُلزِمُ المفسر الارتباط بمعنى معين وصفة معينة، لا يتعداها إلى غيرها حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به[٦].

تعريفه اصطلاحاً

محاولة للتعريف بالحد قلت: ولأن التفسير الموضوعي يُعد قسيماً للتفسير التحليلي فمن الممكن أن نعتمد على تعريف التفسير التحليلي الذي تنطبق عليه شروط التعريف بوضع قيد يدل على التفسير الموضوعي خاصة فنقول :"معرفة مراد الله تعالى في موضوع قرآني بقدر الطاقة البشرية "،فقولنا موضوع قرآني قيد يخرج الكشف عن مراد الله في آية أو جملة أو نحو ذلك ولعل ذلك التعريف أقرب إلى الصواب لا سيما والحمد لله وجدته يشبه تعريف الدكتور عبدالجليل عبد الرحيم الذي عرفه بقوله " الكشف الكلي عن مراد الله عز وجل في قضية قرآنية حسب الطاقة البشرية"[٧].

---

[٥] المدخل إلى التفسير الموضوعي ص١٩-٢١ ولسان العرب و معجم مقاييس اللغة

[٦] المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٢١-٢٣

[٧] منهج التفسير الموضوعي في القرآن ص٤٥

عرّفه شيخنا العلامة عبد الستار فتح الله سعيد، بقوله " علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"[٨].

قال أحدهم مستدركا علي شيخنا:هذا التعريف خص به لوناً واحداً للتفسير الموضوعي، ونقول : إن شيخنا رحمه الله له تحفظات على بقية الأقسام فخصه بالموضوع القرآني فقط دون السورة القرآنية والمصطلح القرآني.فلم يعدهما من التفسير الموضوعي؛ لأنه يريد أن يطبق القواعد العلمية المتفق عليها لاستخراج هذا العلم أما محاولة البعض بتكثير الأقسام وجمع المختلفات تحت عنوان واحد لعلم خاص فلا يستقيم هذا الأمر لا سيما وقد انحرف بعض الباحثين عن اتباع القواعد العلمية الصحيحة لدراسة التفسير الموضوعى في رسائلهم العلمية ،وكتب كل ما يريده ويقول هذا تفسير موضوعي!.وتهكم بهم الشيخ عبدالغنى الراجحى وقال بل موضوع تفسير وليس تفسيرا موضوعيا،بل جعل بعض الباحثين يرفض هذا العلم وبعضهم يستصعب تصوره فضلا عن الكتابة فيه .

كما استدرك البعض على هذا التعريف،قائلا إنه بيان لخطوات التفسير الموضوعي وليس تعريفا.

قلت من أنواع التعريف لدى المناطقة التعريف بالرسم وهو ما قام به شيخنا فأجاد وأفاد وتعريف بالحد وهو ما ذكرناه آنفاً وبذلك نكون عرفنا ذلك العلم بنوعي التعريف وهذا ما قام به علماء التفسير الذين عرفوا التفسير التحليلي عدة تعريفات منها تعريفات بالرسم وهى بيان كيفية تفسير القرآن ولم يعترض أحد على تلك التعريفات بل نقلوها وارتضوها .

تعريف ثان و عرفه الشيخ الدكتور مصطفى مسلم بقوله: " هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر"[٩].وتعقب هذا التعريف بأنه لا يخلو

---

[٨] المدخل إلى التفسير الموضوعي صـ ٢٠

من غموض وغرابة فما المقاصد القرآنية وهل لها ما صدق معروف في علوم القرآن سابق على النظر الموضوعي حتى نجعلها معياراً ومستنداً يقوم عليه فهمنا للقضايا المفسرة موضوعيا ؟[10]. ويُستدرك عليه بأنه ذكر قسمين للتفسير الموضوعي وجعل منه مقاصد السور وهذا عند التأمل لا يعد من التفسير الموضوعي الذي يتمناه العلماء في ظهوره بتحديد خاص لا يختلط بغيره من الفنون ومن الممكن أن نعد هذا القسم"للسورة الواحدة" مما يدخل تحت علوم القرآن علم مقاصد السور حيث إن علماءنا كتبوا في هذا العلم باختصار كمقدمات لتفسير السورة و ندعوا الباحثين لتعميق الفهم والتدبر لما قالوه ويخرجوه لنا بأسلوب علمي جديد. ومع ذلك فلن يستطيع أحد أن يحجر على أحد ولن يستطيع أحد أن يلغي جهدا علميا قام به بعض العلماء ولكن الخلاف في الاسم ولا مشاحة في الاصطلاح فإن قام باحث ودرس موضوعا معينا في سورة ما و بذل جهده وتقيد بقواعد التفسير الموضوعي واستنتج من السورة ما نطلبه من التفسير الموضوعى فجزاه الله خيرا و نرى ذلك في كتابات بعض العلماء مثل عبد الحميد الفراهي في "نظام القرآن"، و العلامة محمد عبد الله دراز في "النبأ العظيم" والشهيد سيد قطب في "الظلال"،أما إن حام حوله ولم يتمكن من إتمام ما زعم أنه سيكتب فيه فلا والحق أبلج ونحو ما نشير إليه ما تم في الإمارات من نشر ما يسمى بالتفسير الموضوعى لسور القرآن الكريم.ومن ينظر فيه يعلم أنه موضوع تفسيري بل هو أقرب إلى مقالات للتعريف بالسور القرآنية

فائدة وقلت لشيخنا العلامة الشيخ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: إذن توافق على قولنا مثلا العلم من خلال تفسير سورة كذا قال هذا من أقسام التفسير "الوسيط أو الوجيز" وقد ذكرته في المدخل ولكنه يعد ناقصا لعدم إحاطتنا بكل جوانب الموضوع مثلا عندما نتحدث عن نعيم الجنة فنتحدث عن نوعى النعيم الروحانى والجسماني فإذا

---

[9] مباحث في التفسير الموضوعي ص١٦ د مصطفى مسلم دار القلم دمشق١٤٢١ -٢٠٠٠

[10] منهج التفسير الموضوعي في القرآن الدكتور سامر رشواني ص٤٤ دار الملتقى

قمنا بتفسير سورة "القيامة" تفسيرا موضوعيا ممكن نخل بقسم من القسمين وهكذا .

نعم هذا جائز ولكن له وقته ومقامه- بحث في مجلة موضوع خاص أو خطبة أو درس معين- أما دراسته من خلال كل القرآن فهو الأفضل

فائدة: وإذا أردنا أن نوضح ما ذهب إليه المتساهلون في عد أنواع التفسير نجدهم قد جعلوها ثلاثة أنواع :-

(النوع الأول للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم وهو الأصل الذي جعلنا له هذا البحث

(النوع الثاني) التفسير الموضوعي للسورة وهو الذي تحدثنا عنه عند تعريف الدكتور مصطفى مسلم

(النوع الثالث للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني)

ومضمونه : أن يختار الباحث لفظة أو مصطلحاً، تتكرر في القرآن كثيراً، فيتتبعها من خلال القرآن، ويأتي بمشتقاتها ويستخرج منها الدلالات واللطائف. وهذا قدر تناولها علماؤنا تحت عناوين أخر كالأشباه والنظائر أو مفردات القرآن أو كليات القرآن ثم إذا درس من خلال التفسير الموضوعي فما الفرق بينه وبين التفسير الموضوعي الأصلي مثل مصطلح الأمة فمن الممكن أن نقول الأمة في ضوء القرآن الكريم نذكر المباحث التي يمكن دراستها تحت هذا العنوان .

أما موضوع (المصطلح القرآني) فقد تحفّظ عليه بعض الباحثين ولم يرو إفراده كلون مستقل من ألوان التفسير الموضوعي، ورأى آخرون أن هناك خللاً في فهم المراد به، وأن بعض الباحثين في التفسير الموضوعي كتب فيه بناء على تصور غير صحيح. قلت ومما يعكر على هذا القسم موضوع الوجوه والنظائر فستجد أن للكلمة في القرآن وجوها فكيف تجعلها تحت موضوع واحد نعم ندرسها ونحلل معناها ونبين موقعها في كل جملة ودلالتها فيه ولكن اين هذا من لتفسير الموضوعي؟ولشيخنا حفظه الله ملاحظة على قول البعض "مصطلح قرآني " ومعنى مصطلح أي اصطلح قوم على كذا والقرآن كلام

رب العالمين فيتساءل مع من اصطلح الله على هذا الأمر فلعلنا نقترح معا على اختيار عبارة غير موهمة

وله استدراك على القول بالوحدة الموضوعية للقرآن الكريم؛ لأن القرآن اشتمل على موضوعات شتى واهتم بقضايا عديدة انظر إلى سورة الكوثر مثلاً وتأمل كيف تنوعت الموضوعات التي تحدثت عنها

أقسام التفسير الموضوعى للقرآن الكريم:من حيث ارتباط الموضوعات بعصها ببعض ينقسم إلى قسمين:-

١- التفسير الموضوعي العام وهو الذي يبحث في الموضوعات المرتبطة غاية وهو الذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، وليس في أصل المعنى،مثل ذلك: تفاسير آيات الأحكام جميعًا، فهي تتكلم في أحكام القرآن؛ لكن هذا في الصلاة، وهذا في العدة، وهذا في الطلاق، وهذا في الجهاد، وما إلى ذلك، فالغاية التي تربطها هي أنها أحكام، لكن الموضوع الواحد لا يتحقق فيها.

٢- التفسير الموضوعي الخاص وهو الذي يبحث في الموضوعات المرتبطة معنى وغاية.
وهو الذي يقوم على وحدة المعنى، والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة بينها رابطة قريبة وخاصة،مثل التقوى في القرآن و التوبة في القرآن...وممكن أن نضع قيود في العنوان ليزداد خصوصية ،وكلما كان الموضوع كبيرا ومساءله متنوعة كلما استطعنا أن نضع قيودا في العنوان اليهود في ضوء القرآن الكريم، فهذا موضوع محدد يدخل تحته آيات كثيرة كلها في ذات الموضوع، ويجوز أن يقيد الموضوع بقَيْدٍ ما، فيزداد تخصيصًا مثل: عقيدة اليهود الضالة في ضوء القرآن الكريم، وكلما زادت القيود قلت: الأفراد، وازداد التخصص في اطراد عكسي،

وهذا النوع هو أحدث الأنواع جميعًا، وهو الاصطلاح العلمي الجديد، وهو أولى الأنواع باسم التفسير الموضوعي عند الاطلاق.

ولعل الذين تناولوا ذكر الأقسام السابقة قلد بعضهم بعضا ولعل البعض مال للتساهل في الأمر كى لا يحجر على فكر الباقين ولكل وجهة.

مناهج التفسير الموضوعي: من خلال دراستنا لمناهج المفسرين علمنا أن من مناهجهم في كتابة التفسير التحليلي أن منهم من يوجز فيكتب التفسير الإجمالى ومنهم من يتوسط ومنهم من يسهب ومن خلال ذلك نستطيع أن نقول مناهج التفسير الموضوعى من خلال تلك الحيثية. تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:التفسير الموضوعي الوجيز، وهو الذي يختار فيه المفسر عدة آيات لتفسَّر موضوعيًا في مقالة أو محاضرة أو خطبة ونحو ذلك، وينبغي الاجتهاد في اختيار الآيات الجامعة، وضبط عناصر الموضوع؛ حتى يأتي موضحًا لموقف القرآن الكريم –ما أمكن.

القسم الثاني: التفسير الموضوعي الوسيط، وهو الذي يختار فيه المفسر موضوعًا يعرضه من خلال سورة واحدة مثل"العقيدة في سورة الشورى"، أو من خلال مجموعة سور ك"العقيدة في مجموعة سور: الحاميم " أو من خلال القرآن كله، وحينئذ يلزم المفسر اختيار جوامع الآيات الكريمة التي تمثل أطراف الموضوع وعناصره، ثم يعرضها عرضًا وسَطًا بعد النظر والموازنة،ومن أمثلة هذا النوع: معظم ما كتبه الأساتذة من محاضرات علمية في مقرر التفسير الموضوعى.

القسم الثالث: التفسير الموضوعي البسيط –يعني: المبسوط الموسَّع– وهو الذي يقوم على الاستقراء والاستيعاب، وعلى الإحصاء الشامل لموضوع ما، فيجمع المفسر آياته،

وعلى الوجه التفصيلي وهذا النوع لا يتحقق عمليًا إلا بنوعين، النوع الأول:إذا كان الموضوع في القرآن محدودًا في آيات معدودة، يسهل على المفسر أن يجمعها، ويستخرج عناصرها بلا حاجة إلى اختصار، ولا اختيار ولا موازنة، وذلك كموضوع الجن في ضوء القرآن الكريم، أو قصة إسماعيل عليه السلام في ضوء القرآن الكريم، أو الصوم في القرآن، ونحو ذلك فهذا النوع ممكن أن يكتب فيه على سبيل الاستيعاب بلا تعب ولا موازنة.

النوع الثاني: إذا كان الموضوع سيفرد في كتاب مستقل، خاصة الرسائل العلمية التي من شأنها أن تقوم على الحصر والاستقصاء والتي يتفرغ لها دارسها، ومشرفه، ومناقشوه،فهذا أولى الأشياء بهذا القسم من التفسير الموضوعي.

ومن موضوعات القرآن المفردة ما يحتاج بيانه إلى رسائل ضخمة، متعددة الأجزاء، وفي تقدير شيخنا العلامة الشيخ الدكتور عبد الستار فتح الله أن أصعب الأقسام هو القسم الثاني؛ لأنه وسط بين طرفين، فيحتاج المفسر أن يوازن بينهما، ثم هو يحتاج إلى أناة وطول نظر في الآيات الكريمة؛ ليختار أجمعها، وحتى لا يترك عنصرًا من عناصر الموضوع.

أهميته و أوجه الحاجة إليه:

هو كسائر العلوم لشرعية عامة وما يتعلق بدراسة القرآن الكريم خاصة له من الفضل والشرف والحاجة إليه ما لتلك العلوم و يزيد هو بخصوصيته الخاصة به

وأوجه الحاجة إلى التفسير الموضوعي ظاهرة من بيان أنه عبارة عن شرح الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد لأنه إذا كانت المباحث القرآنية متجلية للباحث بجميع نواحيها متجهة به إلى غايتها مبرزة إلى نواحي الحكمة في دعوة القرآن إليها كان ذلك النهج

باعثا للمطلع عليه إلى أن يسلك الطريق الذي رسمه القرآن حيث كان واضح الغاية، محدد النهاية بارزاً في تصويره جامعا لكل الأهداف في تحقيقه...و العصر الذي نعيش فيه، يحتاج إلى ذلك النوع من التفسير، حيث كان في سلوكه إدراك المقصود من أقرب الطرق، والوصول إلى الحقيقة بأسهل الوسائل خصوصاً أنه في عصرنا يثار كثير من الغبار في جو الأديان، فتنتشر المبادئ الشيوعية ، وتحلق في سماء الإنسانية سحب الضلال والشبه، وليس يقوى على ذلك إلا سلاح قوي، واضح سهل، يمكن رجل الدين من الذود عن حياضه، والدفاع عن دعائمه وليس هذا إلا إلا بذلك النوع من التفسير حيث كان جامعا لشتات الموضوعات محيطا بأطرافها[١١]

ونجمل أوجه الحاجة إليه في النقاط التالية:

١- إبراز إعجاز القرآن الكريم على وجه يلائم العصر، من خلال بيان شموله لكل هذه الموضوعات المتكاثرة مع وجازة لفظه، ومن خلال إظهار كمال كل موضع فيه على حدة، فمع أن القرآن الكريم نزل منجماً إلا أننا حين نجمع (نجوم الموضوع) معاً نجدها في غاية التوافق والتناسق.

٢- الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدين: فالتفسير الموضوعي يقدم للبشرية بشكل عام حلولاً للمشكلات النفسية والاجتماعية والمعضلات الأخلاقية والاقتصادية، فهذا يتحقق بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم.

٣. تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية: إن جمع الآيات الكريمة جمعاً موضوعياً، وتفسيرها على هذا النمط، مع إحصاء الألفاظ، واستقصاء المعاني وتتبع تعدد الدلالات القرآنية في مواضعها وموضوعاتها، هذا اللون حين تنضج مباحثه، سيكون له أعظم الأثر في إبراز علوم قرآنية جديدة، ودفعها نحو التأصيل والاكتمال بإذن الله تعالى.

---

[١١] التفسير الموضوعي للقرآن الكريمالأستاذ الدكتور أحمد السيد الكومي و الأستاذ الدكتور محمد أحمد القاسم ص ١٩

٤. تصحيح مسار الدراسات القائمة: للتفسير الموضوعي مهمة بالغة في تصحيح الدراسات الدينية والعربية القائمة فعلاً، وإصلاح مسارها، وضبطها على معايير قرآنية جامعة

نشأته:

مصطلح التفسير الموضوعي لم يظهر عَلَمَاً على علم معين إلا في العصر الحديث حيث كانت تدرس هذه المادة التفسير بكلية أصول الدين بالقاهرة وقد أصل شيخنا الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد بأن بدايات هذا العلم كانت قديمة جداً بل من الممكن أن نعد تفسير القرآن بالقرآن بداية أصيلة لبناء هذا العلم المشيد فما أجمل في مكان قد فصل في آخر، وما أطلق في آية قيد في أخرى، فالجمع بين الآيات التي تناولت قضية واحدة والجمع بين دلالاتها والتنسيق بينها كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمها أصحابه،

روى البخاري أن رسول الله ﷺ فسر مفاتح الغيب في قوله تعالى: (وعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ) فقال: مفاتح الغيب خمسة: ((إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ومَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ومَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ). روى الشيخان عن ابن مسعود ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية "الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...)الأنعام:٨٢. شق ذلك على أصحاب رسول الله فقالوا: يا رسول الله وأيُّنا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح:(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). لقمان: الآية ١٣. إنما هو الشرك. إذن المراد بالظلم في آية سورة الأنعام هو الشرك كما وضحت ذلك آية سورة لقمان.بهذا ندرك أن النبي ﷺ قد جمع بين آيتين في موضوع واحد[١٢] فالرسول ﷺ

---

[١٢] صحيح البخاري، كتاب التفسير

أول من استخدم التفسير الموضوعي حيث رد ما أشكل على الناس فهمه إلى ما ليس فيه إشكال، ففسر القرآن بالقرآن بنظرة شمولية لمعنى الظلم في القرآن، وهذا لون من ألوان التفسير الموضوعي.[١٣] قلت هذا دليل على جواز جمع الآيات وليس صريحا في بيان بداية التفسير الموضوعى ...

ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض فلعل ذلك مما يعد دليلاً على صحة وأصالة هذا العلم[١٤].قلت هذا من التفسير الموضوعي بالمعنى العام

ومن الممكن أن نعد من بدايات ظهور هذا العلم ما كتب في مواضيع متخصصة مثل تفسير آيات الأحكام.وما كتب في موضوع الأشباه والنظائر حيث تدرس الكلمة القرآنية،في كل القرآن وما تدل عليه ومن ذلك بعض مواضيع علوم القرآن أحكام النسخ ومشكل القرآن. ونحوه أمثال القرآن،وكل تلك الكتب لا تعد حقيقة من التفسير الموضوعي بل دراسات لمواضيع قام مؤلفها بجمع الآيات بطريقة ما هي إلا أداة من أدوات التفسير الموضوعي وعنصر من عناصر المنهج فيه، وليس تفسيرا موضوعيا بحد ذاته،وإن اعتمد طريقة الاستقراء، فهذا التشابه الجزئي في المنهج لا يقتضي الاتفاق في مفهوم التفسير الموضوعي للقرآن،وهو المقصود بالتأصيل أساسا [١٥].ومن الممكن أن نرجع بنشأة التفسير الموضوعي أي ببيان اللبنات الأولى للتفسير الموضوعي إلى عهد مبكر جدا

وقال التنوخي فى كتابه الفرج بعد الشدة

---

[١٣] مباحث في التفسير الموضوعي ١ /د مصطفى مسلم صـ١٧الناشر: دار القلم

[١٤] مباحث في التفسير الموضوعي صـ١٨

[١٥] منهج التفسير الموضوعي في القرآن صـ٧٤- ٨٠ الدكتور سامر رشواني

وقال عز وجل: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) النمل.

وقال جل من قائل: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠)غافر وقال عز من قائل(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)
البقرة .

وقال تعالى(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) البقرة .

وقال جل جلاله: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)آل عمران .

وروي عن الحسن البصري، أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس، وقد عرف ما جعل اللّه لمن قالهن، قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) البقرة ..

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ

وقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾غافر: ٤٤، ٤٥

و قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)الأنبياء.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)
آل عمران.

وروي عن الحسن أيضاً، أنه قال: من لزم قراءة هذه الآيات في الشدائد، كشفها الله عنه، لأنه قد وعد، وحكم فيهن، بما جعله لمن قالهن، وحكمه لا يبطل، ووعده لا يخلف.

قصة آدم عليه

وقال ﷻ: " أَمَّنْ يجيبُ المضطَّر إذا دعاهُ ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض، أإلهٌ مع اللّه، قليلاً ما تذكّرون " .

وقال جل من قائل: " وقال ربكم ادعوني، أستجب لكم " ، وقال عز من قائل " وإذا سألك عبَادي عنّي، فإنّي قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعاني، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلّهم يرشدون " .

وقال تعالى: " ولنبلّونكم بشيءٍ من الخوف، والجوع، ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرينَ الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنَّا للّه وإنّا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون " .

وقال ﷻ: " الّذين قال لهم الناسُ، إنّ الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا اللّه ونعمَ الوكيل، فانقلبوا بنعمةٍ من اللّه وفضلٍ، لم يمسسهم سوء، واتّبعوا رضوان اللّه، واللّه ذو فضل عظيم " .

وروي عن الحسن البصري، أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس، وقد عرف ما جعل اللّه لمن قالهن، قوله تعالى: " ولنبلونَّكُم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون " .

وقوله تعالى: " الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من اللّه وفضل، لم يمسسهم سوء " .

وقوله: " وأفوّض أمري إلى اللّه، إنّ اللّه بصير بالعباد، فوقاهم اللّه سيّئات ما مكروا " .

وقوله: " وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين " .

وقوله: " وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فأثابهم اللّه ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، واللّه يحب المحسنين " .

وروي عن الحسن أيضاً، أنه قال: من لزم قراءة هذه الآيات في الشدائد، كشفها الله عنه، لأنه قد وعد، وحكم فيهن، بما جعله لمن قالهن، وحكمه لا يبطل، ووعده لا يخلف.

فهذا مثال لموضوع الفرج بعد الشدة فى القرآن الكريم

وممكن أن نقول إن الشيخ زاد ببيان ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء مما له علاقة بتفريج الكرب فقد ذكر قصة آدم عليه السلام وذكر بعض قصص الأنبياء ممن فرج الله كربهم .

هذا وقد قام الدكتور سامر الشرواني بتتبع أصوله التاريخية حيث وجد لها جذوراً ونماذج عند المعتزلة، فللجاحظ كتاب عن "النار" في القرآن، وكذلك بعض مصنفات التفسير الفقهي التي تعتمد الموضوع الفقهي أصلاً في الدرس القرآني، كتفاسير الشيعة لأحكام القرآن، مثل "فقه القرآن" للقطب الراوندي، وفي العصر الحديث نرى اهتمام المستشرقين

بالتفسير الموضوعي كوسيلة لفهم القرآن، وترجع أولى هذه الدراسات إلى المستشرق الهولندي "فت" الذي نشر دراسة عام ١٨٤٥ بعنوان:"محمد والقرآن"، وكذلك "دائرة معارف القرآن" التي كان القصد الأساسي فيها دراسة النص القرآني نفسه، ومثلت مدرسة المنار والمدرسة الإصلاحية، والاتجاه الأدبي في التفسير، أهم الحواضن للتفسير الموضوعي، ثم ظهرت أول رسالة علمية أكاديمية قدمها الشيخ الدكتور محمد محمود حجازي عام ١٩٦٧ رسالة العالمية "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم" ثم تبعته عشرات الرسائل العلمية في جامعة الأزهر وغيرها تخدم هذا العلم علم التفسير الموضوعي.

فهذا يدل على أن التفسير الموضوعي له جذور أصيلة

وفي عصرنا كانت البداية عام ١٩٧٧م الموافق ١٣٩٨هـ يقول شيخنا الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد " ثمَّ شاء الله تعالى أن تتجدد قصتي مع التفسير الموضوعي مرة أخرى حين أُسند إليّ تدريس عدة موضوعات منه، فطفقتُ أبحث عن كتاب يكون كالمقدمة أو المدخل لهذا اللون لأجعله تأسيساً أو تمهيداً بين يدي دراسة الموضوعات فلم أظفر يومئذ بشيء ... واستعنت الله تعالى فكتبت يومئذ مقدمة يسيرة في بيان هذا اللون من التفسير أمليتها على الطلاب، ثم استفدت فوائد جمةً كنت أقيدها في أوراق متناثرة حين زاولت تدريس الموضوعات قال: " فرجعت إلى أوراقي المتناثرة تحثني رغبتي القديمة، وشرعت في البحث والتنقيب، وتطلبت ما يكون قد جدَّ من كتب في هذا الشأن، وقد تفضل أستاذنا وشيخنا العلامة الدكتور أحمد الكومي فأهداني بحثاً له بعنوان: "التفسير الموضوعي في القرآن الكريم "صدَّره بمقدمة أفاد فيها وأجاد، وحدّد بها المعالم الأولى لهذا الفن، وأبرز طريقته، وهو بحث لم يسبق إليه– فيما أعلم– بل أظنه الخطوة العلمية الأولى في هذا الباب،

يقول الدكتور صلاح الخالدي "... التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، وأن البحث فيه والكتابة فيه من باب تلبية حاجات مسلمي هذا العصر، وأن السابقين لم يعرفوه بالصورة التي نعرفها نحن الآن وأنهم كانوا مشغولين بالتفسير التحليلي وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف، وهذا لا يعيبهم، ولا ينقص من قدرهم، لأنهم حققوا حاجات مسلمي عصرهم، ولا نطالبهم أن يرتقوا لمستوى حاجاتنا المتجددة"[16].

بعض المؤلفات في التفسير الموضوعي:-

ظهرت بعض المؤلفات في تأصيل هذا العلم مع ذكر بعض المواضيع القرآنية منها

*- التفسير الموضوعي في القرآن الكريم للدكتور أحمد السيد الكومي والدكتور محمد أحمد قاسم .

*- المدخل إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للأستاذ الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد ،

*-التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق للأستاذ الدكتور صلاح الخالدي).

*-مباحث في التفسير الموضوعي للأستاذ الدكتور مصطفى مسلم.

*- دراسات في التفسير الموضوعي، للأستاذ الدكتور زاهر بن عواض الألمعي

*- دراسات في التفسير الموضوعي للأستاذ الدكتور أحمد العمري.

*- التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، للأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالرحيم .

*- محاضرات في التفسير الموضوعي "عشرون محاضرة" للأستاذ الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد .

وهناك المئات من الرسائل العلمية التي خصصت لدراسة موضوع ما فأغلبها به مقدمة تتعلق بالتفسير الموضوعي نظريا وتقوم بدراسة الموضوع تطبيقياً.

---

[16] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص ٣٩

كيف نكتب بحثا في التفسير الموضوعي ؟

الخطوات التي وضعها الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

أولًا: المعرفة الدقيقة لمعنى التفسير الموضوعي الخاص .وفائدة ذلك أن الباحث يسير في إطار معين لا يتعداه .

ثانيًا: تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه تحديدًا دقيقًا من حيث المعنى.فلابد أن يكون الموضوعُ قرآنيًا." لابد أن تبين المراد منه وتبين مرادفاته وما يتعلق به من الناحية اللغوية والاصطلاحية"

ثالثًا: اختيار عنوان له من ألفاظ القرآن الكريم ذاته، أو عنوان منتزع من صميم معانيه القرآنية. : فينبغي أن يراعي فيه ما يأتي:

أ- أن يكون لفظًا قرآنيًّا صريحًا أو مشتقًّا

ب- اختيار أجمع لفظ قرآنيٍّ عند تعدد الألفاظ؛ ليكون عنوانًا للبحث، ومحورًا يُدَارُ عليه الموضوع ابتداءً. أن يكون لفظًا قرآنيًّا صريحًا أو مشتقًّا، ولا ينبغي العدول عن اللفظِ القرآني إلى معناه إلا لضرورة، ولا يجوز البتة ترك لفظ القرآني إلى غيره من مصطلحات الناس؛ خاصة في مواطن الاشتباه؛ فلا يصح –مثلًا– أن يتركَ لفظ "الشورى" في ضوء القرآن الكريم فبحثه هذا بحث عظيم، تحدث الله عن سورة كاملة اسمها "الشورى"، وتحدث في سورة "آل عمران" عن الأمر بالشورى، وغير ذلك، فيبحث "الشورى" في القرآن، لكن لا يصح أن يعدل عن هذا إلى لفظ آخر يظنه مرادفًا أو مقاربًا للشورى، مثل عنوان: "الديمقراطية في القرآن" فهذا لا يصح؛ أن يترك لفظ "الشورى" إلى لفظ "الديمقراطية".

ولا يترك لفظ "الزكاة" إلى "الاشتراكية" أو "الضريبة الاجتماعية" ولا يترك لفظ "الجاهلية" من الممكن أن يكون البحث صحيح "الجاهلية في ضوء القرآن" لكن لا يترك هذا اللفظ باعتباره مصطلحًا إسلاميًّا يدل على المناهج المخالفة لدين الله فيقول: مثلًا "العَلمانية في ضوء القرآن الكريم" هذا خطأ؛ لأن القرآن له دلالات محددة، ولا يعبر عن الجهاد في

سبيل الله بلفظ "صراعات الطبقات" ونحو ذلك من المصطلحات الحادثة التي تعني معانيَ محددة، قد تخالف القرآن في جملتها أو في تفصيلها.

ولا ينخدع الباحث بما يقال: من أن العبرة بالمعاني لا بالمباني، فإن هذه قاعدة ليست على إطلاقها؛ وخاصَّةً بالنسبة للقرآن الكريم؛ لأن مباني القرآن مقصودة لذاتها –والله أعلم بمواقع الألفاظ وكل شيء عنده بمقدار وحسبان وميزان– كما جاء في القرآن في مواضع شتى.هذا فضلًا عما في هذه الكلمات وأمثالها من معانٍ تخالف القرآن والإسلام؛ فالديمقراطية مثلًا ليست هي الشورى الإسلامية؛ لأن الشورى عندنا تكون فيما لا نصَّ فيه؛ إذ الحكم والتشريع لله وحده، أما الديمقراطية فتقوم عندهم على أساس تشريع الشعب لنفسه أو بواسطة ممثليه من البشر؛ فاللفظان مختلفان في الأصل الذي يقوم عليه كل منهما –وإن اشتركا في بعض المعاني الجزئية كحرية التعبير والعقيدة ونحو ذلك. ولابد من تخير الكلمات القرآنية

كتب أحدهم مرادفا للجهاد كلمة الصراع بين كذا وكذا

لابد من ذكر كلمة الجهاد ففيه بذل الجهد وتحمل المشقة لإعلاء كلمة الله ...و كلمة مقاومة لا تغني عن الجهاد

ومنهم من يستخدم كلمة ضريبة بدلا من كلمة الزكاة و كلمة ضريبة فيه نوع من فرض من قِبل البشر ولكن كلمة زكاة فيها معنى النماء وتدل أن تشريعها من عند الله

فعلى الباحث أن يدقق في اختيار الكلمات وكذا التأدب في ذكر العنوان قرأت عناوين غريبة مثل الغرور في القرآن الأفضل أن نقول محاربة القرآن للغرور أو ذم القرآن للغرور أو موقف القرآن من الغرور الغرور في ضوء القرآن ونحو ذلك

ب– اختيار أجمع لفظ قرآنيٍّ عند تعدد الألفاظ؛ ليكون عنوانًا للبحث، ومحورًا يُدَارُ عليه الموضوع ابتداءً، ثم تُضَمّ إليه في تكوين الموضوع الألفاظ المقاربة لمعناه، ثم الألفاظ المقابلة للمعاني السابقة؛ لأن كل حكم يتقرر في النقائض والأضداد سلبًا وإيجابًا، يفيد في توضيح حكم ما يقابله، وكما قيل بحق: وبضدها تتميّز الأشياء.

ويُوضع هذا كله موضع البحث والمقارنة والموازنة والبيان لمن أراد الاستيعاب واستقراء الموقف القرآني الشامل من موضوع ما، مثال ذلك: موضوع "الحرب والسلام في ضوء القرآن الكريم" نختار له أجمع الألفاظ ليكون عنوانًا وهو "الجهاد في سبيل الله"؛ لأنه أشهر الألفاظ التي وردت في القرآن عن هذا الموضوع، ثم نضم إليه ما يقاربه في المعنى مثل: "القتال، الحرب، الضرب، الثبات، الإثخان في الأرض، الغلب، النصر، الفتح، اللقاء، الصف، الإعداد، الغنيمة، الفيء، الأسرى، العهد" ثم نضم إليه ما يقابله مثل: "السلام والفرار والتولي والفشل والرعب والنبذ ونقض العهود ..." وما إلى ذلك[١٧].

رابعًا: جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع، والعناية باختيار جوامعها عند إرادة الاختصار.

خامسًا: تصنيفها من حيث المكي والمدني، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن.

سادسًا: فهم الآيات الكريمة بالرجوع إلى تفسيرها.

سابعًا: تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة منتزعة من الآيات نفسها ورد الآيات إلى عناصرها وموضعها من البناء الكلي للموضوع، مع تفسير موجز لما يحتاج منها إلى تفسير.

ثامنًا: التقيُّد التام في كل هذه الخطوات بقواعد التفسير الموضوعي.

" ملخص ما سبق"

يصور لنا الشيخ الكومي هذا العلم في كلمات موجزة ببيان طريقة الكتابة فيه فيقول – رحمه الله–النوع الثالث: أن يعمد الباحث والناظر في القرآن إلى الآيات التي تتصل بموضوع واحد فيجمعها ويجعلها نصب عينيه وموجودة بين يديه،ثم يقلب الطرف في أنحائها ويجعل الفكر في جوانبها، ويكون منها الموضوع الذي تتصل به ثم يعمد إلي جوانب ذلك الموضوع ويجعله في إطار متناسب وهيكل متناسق، ملونا لنواحيه مبرزا لمراميه، حتى يكون هيكلا متكاملا الأجزاء تام البنيان قائم الأركان، فإن أعوزه كمال

[١٧] المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٥٩ ، ٦٠

ذلك الموضوع إلي حديث جاءت به السنة حتى يكمل له هيكله ويتم له صرحه جاء به[١٨] وعلى ذلك ينجلي للقارئ بموضع الآية الهدف الذي يقصد القرآن إليه، والمعنى الذي يعول عليه وبهذا يستكشف القارئ للقرآن هدايته ويبرز للناس من مواضع القرآن ما جاء به لأداء مهمته ورسالته.

تنبيهات هامة

من القواعد المهمة في هذا العلم

١- الالتزام التام بعناصر القرآن: الغرض من التفسير الموضوعي هو إبراز موضوع قرآني بعينه، مرتبط بعناصر القرآن وحدها، وكل كلام سواها يذكر في تفسيرها عرضًا، لا غرضًا.فيجب على الباحث في التفسير الموضوعي أن يلتزم بالعناصر التي استخرجها من النظر في الآيات الكريمة، ولا يصح أن يضيف عنصرًا للموضوع من أي مصدر غير القرآن الكريم، لا السنة النبوية أو اللغة أو ما تقتضيه القسمة العقلية ... ونحو ذلك.كذلك لا يطوي عنصرًا من القرآن بأي حجة يتصورها -ولو كانت دعوى الدفاع عن القرآن-

٢- وظيفة السنة النبوية الشريفة في التفسير الموضوعي شارحة ومبينة:

يأتي الباحث بالحديث النبوي شارحًا ومبينًا للنص القرآني، ولا يصح أن يأتي به ليكون منشئًا لعنصر من عناصر الموضوع القرآني؛ لذلك لا نصنف عناصر الموضوع من حديث نبوي -ما دمنا في إطار الموضوع القرآني وفي مجال التفسير الموضوعي لهذه العناصر بذاتها من غير زيادة عليها- حتى تتحدد موضوعات القرآن مستقلة.ويعلم القارئ حدود ما أنزل الله على رسوله من القرآن المتلوّ المتعبد بلفظه وبتلاوته، وهذا أيضًا ما يقتضيه

[١٨] لا غنى عن الرجوع إلى السنة النبوية ولكن ليس من قبيل تأسيس باب في الموضوع فلا نجعل عنوانا رئيسياً فعلى هذا يسمى مثلا العلم أو التقوى في القرآن والسنة ولا يسمى العلم أو التقوى في القرآن لذا استدرك شيخنا العلامة الشيخ بأننا لا نذكر السنة هنا إلا استشهادا وإلا فقل الموضوع الفلاني في القرآن والسنة

التحرير العلمي الدقيق؛ من وجوب التقيد بقيود الموضوع المراد بحثه،فإنه إن قال مثلًا: "العلم في القرآن" تقيَّدَ في عناصره وأمثاله بالقرآن فقط، وتأتي السنة النبوية تفسيرًا لمعاني العناصر والآيات الكريمة، لا منشئة –كما قلنا– وإن قال الباحث: "العلم في الكتاب والسنة" تقيد في عناصره بالأصلين؛ الكتاب والسنة، وإن قال: "العلم في الإسلام" ضمَّ إليهما أقوال الصحابة والتابعين، وإن أطلق فقال: "بحث في العلم"، أضاف إلى ذلك ما شاء من مصادر التاريخ والفلسفة ومذاهب الفكر وهكذا.

ونفس الأمر من باب أولى ينطبق هذا الشرط على كلام الصحابة والتابعين شارحة فقط تذكر عرضا لا أصلاً[١٩] .هكذا نعلم خطأ مكن رفض هذا العلم ظنا منه أن حديث القرآن عن موضوع ما لا يكفى أن نقوم بدراسته دراسة كاملة من خلال التفسير الموضوعي مستقلة عن السنة المطهرة .ثم إن خطأ من أخطأ في دراسته لهذا العلم لا يصلح أن يكون سببا لرفضه بهذه الطريقة العجيبة.

*– حول قولنا "مصطلح قرآنى" قلت لشيخنا الإمام الرازى يقول عادة القرآن فهل نستخدم عبارته تلك بدلا من "مصطلح قرآنى" فقال لا استسيغه أيضا؛ لأن معنى العادة التعود على الشيء يعنى لم يكن من شأنه ثم اعتاده كما أنه لم يوصف به الله تعالى فلا نقل عادة الله كذا بل قل سنة الله كذا. ممكن نقول منهج القرآن وطريقة القرآن أو سنن القرآن وهى كلمات قرآنية،لابد من أخذ الكلمة من القرآن نفسه. وما قام به الشيخ الدكتور أحمد حسن فرحات جهد مشكور ولكنه ممكن أن يكون مقدمة للموضوع في التفسير الموضوعى فغير ممكن أن ندرس كلمة من غير بيان الموضوع كله فهو لبنة من لبنات التفسير الموضوعى.

وميزة التفسير الموضوعى أن منطلق الدراسة هو آيات القرآن الكريم لا غير، وإن ذكر شيء من غير القرآن في الموضوع فيذكر من باب الاعتضاد لا الاعتماد وعلى الباحث

[١٩] المدخل إلى التفسير الموضوعي صـ٧٠

أن يتجنب خلال بحثه التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات فلا يُغرقَ الباحثُ في الجزئيات التحليلية،فلا يذكر القراءات، ووجوه الإعراب ونحو ذلك إلا ما يحتاج إليه في الموضوع إلا بمقدار ما يخدم الموضوع ويتصل به اتصالاً أساسياً مباشراً.

هذا ولا غني لنا عن الرجوع إلى كتاب شيخنا المدخل إلى التفسير الموضوعي فقد فتح الله عليه فيه بفتوحات لابد أن تأخذها من معينها الأول وقد ذكر حفظه الله بعض المواضيع الهامة كنماذج للتفسير الموضوعي الوسيط مثل الوحدانية والتوحيد والمعية والتبعية والعلم والعلماء الآخرة ومشاهدها.

التلطف والاستئناس في ضوء القرآن الكريم

ونعني باللطف كما في كتب اللغة الرفق المقابل للعنف وهو في صفة الأجسام مقابل للغلظ والكثافة. والمقصود من ذلك العنوان ما يقصد من الأدب أو الذوق أو "الإتيكيت" كل حسب ما يتعارف الناس عليه وقد أخذت كلمة التلطف من قوله تعالى "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) الكهف . فقد وصى أصحاب الكهف رفيقهم أن يذهب للمدينة بلطف ورفق لا يلفت إليه الأنظار فينكشفوا لأعدائهم . ومن صور التلطف أن يرفق في شرائه لا يكثر من المساومة التي لا فائدة منها ويتياسر في شرائه ويمشى بالسكينة والوقار فالذي يسرع في مشيه ومن يكثر الالتفات والحركة ونحو ذلك مما يلفت الناس إليه ومما يعاب فاعله.

وأخذت كلمة الاستئناس من قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) النور. أي يطلب الأنس فليس المطلوب الإذن بل ما هو أفضل من الإذن

والأَنَسُ: خِلَافُ الوَحْشَةِ، وَهُوَ مَصْدَرُ قَوْلِكَ أَنِسْتُ بِهِ، بِالْكَسْرِ، أَنَساً وأَنَسَةً ، والأُنْسُ وَالِاسْتِئْنَاسُ هُوَ التَّأَنُّسُ، وَقَدْ أَنِسْتُ بِفُلَانٍ.الِاسْتِئْنَاس: هُوَ عبارَة عَن الأنس الْحَاصِل من جِهَة المجالسة،وَهُوَ خلاف الاستيحاش[٢٠]

[٢٠] الكليات (ص: ١١٥) لسان العرب (٦/ ١٢)

فلننظر إلى تعليم الله وتزكيته لعباده، لم يترك لنا خيرا تصلح به حياتنا إلا و حضنا عليه كرما وتفضلا قال سبحانه (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) النحل. عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «إِنَّ كُلَّ مُؤَدِّبٍ يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى أَدَبُهُ، وَإِنَّ أَدَبَ اللَّهِ ﷻ الْقُرْآنُ»و عَنْ مُجَاهِدٍ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] قَالَ: «أَدَبُ الْقُرْآنِ»[٢١] .

قَالَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ: «إِنَّمَا الْقُرْآنُ آيَةٌ مُبَشِّرَةٌ وَآيَةٌ مُنْذِرَةٌ، وَآيَةٌ فَرِيضَةٌ، أَوْ قَصَصٌ، أَوْ أَخْبَارٌ، وَآيَةٌ تَأْمُرُكَ، وَآيَةٌ تَنْهَاكَ»[٢٢]

وعلينا ألا نقلل من أدب من الآداب أو هيئة من الهيئات ونقول أمرها هين بل نكثر من الخير و إن قل شأنه في أعين بعض الناس.

عن أبي العباس بن عطاء قال من ألزم نفسه بآداب السنة عمّر الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه[٢٣].

و أهم ما نذكره في بحثنا هنا:-

الأدب مع الله تعالى والأدب مع الأنبياء و مع النبي سيدنا محمد ﷺ و أدب المؤمنين مع بعضهم ومع غيرهم من غير المسلمين.

[٢١] فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ١١١) وقول مجاهد (ص: ١١٢)

[٢٢] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ١٢٣)

[٢٣] صفة الصفوة ٢/٤٤٥

الأدب مع الله تعالى

١-التَّأَدُّبُ فِي الْخِطَابِ بِإِضَافَةِ الْخَيْرِ إِلَى اللَّهِ

علمنا العليم الحكيم أن لا يضاف إليه إلا الخير ولا يليق بجلاله أن يضاف إليه الشر[٢٤] كقوله تعالى " صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)الفاتحة. وَلَمْ يَقُلْ غَيْرِ الَّذِينَ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ[٢٥] . جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها . وكذا قَوْله "بِيَدِكَ الْخَيْرُ " ولم يقل والشر وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا بِيَدِهِ لَكِنَّ الْخَيْرَ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِرَادَةَ مَحَبَّةٍ وَرِضًا وَالشَّرُّ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ إِلَّا إِلَى مَفْعُولَاتِهِ لِأَنَّهُ لَا يُضَافُ إِلَى صِفَاتِهِ وَلَا أَفْعَالِهِ بَلْ كلها كمال لَا نَقْصَ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ وَهُوَ أَوْلَى مِنْ تَفْسِيرِ مَنْ فَسَّرَهُ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ (بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)وفيه تسليم بأن ما يفعله الله تعالى دائما خير، وأن الخير كله بيده سبحانه وقوله تعالى: (بِيَدِكَ الْخَيْرُ) معناه إنك وحدك الذي تملك الخير كله قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ فِيهِ الْإِرْشَادُ إِلَى الْأَدَبِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَمَدْحِهِ بِأَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ مَحَاسِنُ الْأُمُورِ دُونَ مَسَاوِيهَا عَلَى جِهَةِ الْأَدَبِ[٢٦] .

*-ومن ذلك نسبة العهد ونبذه للمسلمين تأدبا مع الله تعالى كما في قوله تعالى(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)التوبة.قال الزمخشرى:فإن قلت: لم

---

[٢٤] مذهب أهل الحق من المحدّثين والفقهاء والمتكلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين أن جميع الكائنات، خيرها وشرَّها، نفعَها وضرّها، كلها من الله سبحانه وتعالى، وبإرادته وتقديره الأذكار للنووي ط ابن حزم (ص: ١٠٧)

[٢٥] البرهان ٥٩/٤ تفسير أبي السعود (١/ ١٩) روح المعاني ٤٣/٢١

[٢٦] البرهان ٥٩/٤ زهرة التفاسير (٣/ ١١٧٠) شرح النووي على مسلم (٦/ ٥٩)

علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين(عَاهَدْتُمْ)؟يعنى لم يقل عاهدهم الله أو أذن الله لكم أن تعاهدوهم فأجاب رحمه الله قائلا: قد أذن الله في معاهدة المشركين أوّلا فاتفق المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون.

وزاد ابن المنير مبينا أنه مراعاة للأدب مع الله تعالى:...أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين، لا تحسن شرعا.

ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ لأمراء السرايا حيث يقول لهم: وإذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أصادفت حكم الله فيهم أولا؟ وإن طلبوا ذمة الله فأنزلهم على ذمتك، فلأن تخفر ذمتك خير من أن تخفر ذمة الله. فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله مخافة أن تخفر وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أحرى وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه، والله أعلم»[٢٧]

*- من الأدب مع الله ﷻ أن لا يجمع في الذكر بين اسمه سبحانه وبين اسم غيره قال تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ" النساء:٥٩. " أَطِيعُواْ اللَّهَ"فأفرده في الذكر، ثم قال :" وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأمْرِ مِنْكُمْ " وهذا تعليم من الله سبحانه لهذا الأدب ، وهو أن لا يجمعوا في الذكر بين اسمه سبحانه وبين اسم غيره ، وأما إذا آل الأمر إلى المخلوقين فيجوز ذلك ،بدليل " وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأمْرِ

[٢٧] تفسير الزمخشري ومعه الانتصاف (٢/ ٢٤٢)

مِنْكُمْ " وهذا تعليم لهذا الأدب.وقج نبه عليه ﷺ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ". قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: فَقَدْ غَوِيَ) ، وتحقيق القول فيه أن الجمع بين الذكرين في اللفظ يوهم نوع مناسبة ومجانسة، وهو سبحانه متعال عن ذلك[٢٨].

*-من الأدب مع الله

يعلمنا الله تعالى أن نجل ذكره ولا نذكر ما ذكره المشركون أو فعلوه مما لا يليق بجلاله تعالى ففى(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ) (ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ) (النساء: ١٥٣) وكذلك فعل سيدنا موسى عليه السلام وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ (البقرة:٥٤)

وَلَمْ يَذْكُرِ الْمَفْعُولَ الثَّانِيَ لِلِاتِّخَاذِ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ، « العِجْلَ » مفعولٌ أولُ والثاني محذوفٌ أي: إلهاً. أي معبوداً حذف لشناعته أي اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ الذي صنعه السامري إلها[٢٩].

[٢٨] مفاتيح الغيب ١٢٠/١٠

[٢٩] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١/ ٣٦١(تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ١٠٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٨)

*–من الأدب مع الله عند إرادة فعل في المستقبل أن نقول " إِن شَاء اللَّهُ " لقوله تعالى" (وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَيْءِ إِنِّي فَاعِلٌ ذالِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءِ اللَّهُ) (الكهف:٢٤،٢٣) وقد ذكر ذلك سبحانه تعليماً للعباد الأدب وتأكيداً .فتأدب رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بهذا الأدب الكريم قال تعالى " لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ " (الفتح:٢٧). قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: لَتَدْخُلُنَّ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ حِكَايَةً عَنْ رُؤْيَاهُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا اسْتَثْنَى مَعَ عِلْمِهِ بِدُخُولِهَا بِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى، تَأَدُّبًا بِآدَابِ اللَّهِ، حَيْثُ قال له: (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ) (الْكَهْفِ) [٣٠].

وقد التزمها سيدنا موسى عليه السلام" قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً "الكهف:٦٩.

ولما نسيها سيدنا سليمان عليه السلام لم تتحقق أمنيته عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيِّ اللّهِ: لأَطُوفَنّ اللّيْلَةَ عَلَىَ سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلّهُنّ تَأْتِي بِغُلاَمٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ، أَوِ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ، إلاّ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقّ غُلاَمٍ"، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : "وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللّهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكاً لَهُ فِي حَاجَتِهِ"[٣١].

*– من الأدب مع الله افتتاح الكلام بالتسبيح تنزيها له تعالى عما يرد على الخاطر مما لا يليق بجلاله وعظمته فمن أدب الملائكة أنهم"قالُوا سُبْحانَكَ لَا عِلْمَ لَنا إِلاَّ مَا عَلَّمْتنا

---

[٣٠] تفسير البغوي – إحياء التراث (٤/ ٢٤٤)

[٣١] البخاري ٦/٤٦٠ كتاب أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ. باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ الرَّاجِعُ الْمُنِيبُ. ومسلم ١١/١٢٠ كتاب الأيمان والنذور. باب الاستثناء.

"وَافْتِتَاحُ كَلَامِهِمْ بِالتَّسْبِيحِ وُقُوفٌ فِي مَقَامِ الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ لِذِي الْعَظَمَةِ الْمُطْلَقَةِ،... فَكَانَ افْتِتَاحُ كَلَامِهِمْ بِالتنزِيهِ تَعْجِيلًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةِ جَانِبِ الْأَدَبِ الْعَظِيمِ "[٣٢]

ومنه قول سيدنا عيسى عليه السلام" قَالَ سُبْحَانَكَ " وسيأتي تفصيله إن شاء الله .

أدب الأنبياء مع ربهم

الأنبياء هم أعلم الناس بربهم فهم أحسنهم أدبا وأكثرهم توقيرا وتعظيما لله جل جلاله وقد أخبرنا الله عن حالهم وتأدبهم مع الله فمن ذلك

*- سيدنا محمد ﷺ

كان ﷺ أفضل الناس خلقا كان خلقه القرآن وهو أعظم الناس معرفة بعظمة ربه ومولاه والسنة المطهرة تدلنا على أدب رسول الله ﷺ مع ربه وحسن خلقه فمن ذلك ما رواه البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ " قال النووي رحمه الله: وقوله مقاما محمودا هكذا هو في المهذب مقاما محمودا بالتنكير وكذا هو في صحيح البخاري وجميع كتب الحديث وهو صحيح ويكون قوله الذي وعدته بدلا منه أو منصوبا بفعل محذوف تقديره أعني الذى وعدته أو مرفوعا خبر مبتدأ محذوف أي هو الذى وعدته وأما ما وقع في التنبيه وكثير من كتب الفقه المقام المحمود فليس بصحيح في الرواية وإنما أراد

[٣٢] التحرير والتنوير ١/ ٤١٣

النبي ﷺ التأدب مع القرآن وحكاية لفظه في قول الله ﷻ ("عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) " الإسراء)[٣٣].

*- ومنه قوله تعالى(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا)"تَرْضَاهَا " أي تحبها وتميل إليها عبر بترضاها للدلالة على أن ميله إلى الكعبة ميل لقصد الخير بناء على أن الكعبة أجدر بيُوتِ الله بأن يدل على التوحيد ولما كان الرضى مشعراً بالمحبة الناشئة عن تعقل اختير في هذا المقام دون تُحبها أو تهواها أو نحوهما فإن مقام النبي ﷺ يربو عن أن يتعلق ميله بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعية استقبال بيت المقدس [٣٤].

*- وهنا أدب ثان ننبه إليه حث إن الظاهر أنه ﷺ لم يسأل ذلك من ربه بل كان ينتظر فقط إذ لو وقع السؤال لكان الظاهر ذكره ففي ذلك دلالة على كمال أدبه ﷺ . وكان الرسولﷺ يقلب وجهه في السماء متجها إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء، تأدبا مع اللّه، وانتظارا لتوجيهه بما يرضاه...ولا يصرح بدعاء ، تأدبا مع ربه ، وتحرجا أن يقترح عليه شيئا ، أو أن يقدم بين يديه شيئا... وقال قتادة والسدي وغيرهما : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى أن يحوله إلى الكعبة لا مانع من دعائه ﷺ وسؤاله التحويل لمصلحة ألهمها ومنفعة دينية فهمها ومن علم مرتبة الحبيب عد جميع ما يصدر منه في غاية الكمال مع مراعاة نهاية الأدب

[٣٣] صحيح البخاري (١/ ١٢٦) رقم: ٦١٤ والمجموع للإمام النووي ١١٧/٣

[٣٤] روح ا لمعاني ٩/٢ التحرير والتنوير٢٨/٢

بقى هل دعا ﷺ في هذه الحادثة صريحا أم لا؟ الظاهر الثاني بناءأ على ما صح عندنا من ظواهر الأخبار حيث لم يكن فيها سوى حب التحويل فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن البراء رضي الله عنه قال : صلينا مع رسول الله ﷺ بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المقدس ثم علم الله تعالى هوى نبيه عليه الصلاة والسلام فنزلت (قد نرى) الآية وليس في الآية ما يدل صريحا على أحد الأمرين وأما الإشارة فقد تصلح لهذا وهذا كما لا يخفى[٣٥].

*-أدب سيدنا إبراهيم عليه السلام:-

أما خليل الرحمن عليه السلام فكان قدوة حسنة في الأدب والخلق الحسن انظر كيف تلطف عليه السلام واختار ألطف العبارات في حديثه عن ربه ومولاه (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)) سورة الشعراء. فقد أسند المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله عز وجل. وهذا حسن الأدب في العبارة ...فلا ينسب مرضه إلى ربه- وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح- إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه..ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه[٣٦].فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام أضاف الإماتة إلى الله تعالى وهي أشد من المرض قلنا يمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب:بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك

---

[٣٥] روح المعاني ٢/ ٨

[٣٦] تفسير القشيري (٣/ ١٣) المحرر الوجيز العزيز (٤/ ٢٣٥)

المرض.فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالتأسى بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى. وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققا فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً؛ لأنه أمر لا بد منه.وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا، أورده مقرونا بشرط إذا، فقال (وَإِذا مَرِضْتُ...) وكان ممكنا أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره[37].

وكذا في قوله تعالى" وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)سورة الشعراء. تأدب عليه السلام في إظهار طمعه في المغفرة من غير جزم بها عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ:خَلِيلُ اللَّهِ مَا تَسْمَعُونَ لَيْسَ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْفِرَى وَالْكَذِبِ فُلانٌ فِي النَّارِ وَفُلانٌ فِي الْجَنَّةِ قال التسترى: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة.[38]

وكذا نتعلم الأدب منه عليه السلام كما في قوله"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى"البقرة:٢٦٠. فهذا أدب نبي الله إبراهيم أثنى على ربه فقال رَبِّ " وقال كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى و إذا قارنا قوله بقول عزير " أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا" البقرة: ٢٥٩. لرأينا يدل على فضل إبراهيم عليه السلام ويمن الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، ثم إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه لحسن أدبه في السؤال وأراه

---

[37] الانتصاف على الكشاف (٣/ ٣١٩)

[38] تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٨٠)تفسير التستري (ص: ١١٥)

عزيرا بعد أن أماته مائة عام[٣٩]. كما أنه تعالى لم يسم عزيراً حين قال : " أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ " (البقرة : ٢٥٩) وسمى هاهنا إبراهيم مع أن المقصود من البحث في كلتا القصتين شيء واحد ، والسبب أن عزيراً لم يحفظ الأدب، بل قال:" أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ" وإبراهيم حفظ الأدب فإنه أثنى على الله أولاً بقوله " رَبّ " ثم دعا حيث قال : " أَرِنِى " وأيضاً أن إبراهيم لما راعى الأدب جعل الإحياء والإماتة في الطيور ، وعزيراً لما لم يراع الأدب جعل الإحياء والإماتة في نفسه[٤٠].

*- أدب سيدنا موسى عليه السلام

ذكر الله في كتابه من قصص الأنبياء ما فيه العبرة والعظة والأسوة الحسنة لنا وها هو القرآن يحفل بأخبار سيدنا موسي حتى قال بعضهم كاد القرآن أن يكون كله لموسى فقد قص الله علينا من أخباره الكثير والكثير منها بعض الآداب الحسان ليقتدي به ذوى الفضل والإحسان فإننا إذا اقتدينا به وبأدبه نكون من ذوي الأدب وحسن الخلق من ذلك تأدبه في قوله""قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ "الأعراف: ١٤٣."قالَ رَبِّ أَرِنِي" أي ذاتك أو نفسك فالمفعول الثاني محذوف لأنه معلوم، ولم يصرح به تأدبا[٤١].

---

[٣٩] البيضاوي ٥٦٤/١

[٤٠] مفاتيح الغيب ٣٣/٧

[٤١] حاشيه الشهاب (٤/ ٢١٢)،روح المعاني ٤٤/٥

*- وفي قوله " قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ " الْأَعْرَاف: ١٢٨. جَاءَ بِفِعْلِ الرَّجَاءِ " عَسى" دُونَ الْجَزْمِ تَأَدُّبًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِقْصَاءً لِلِاتِّكَالِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ لِيَزْدَادُوا مِنَ التَّقْوَى وَالتَّعَرُّضِ إِلَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى وَنَصْرِهِ[٤٢].

*- وفي قوله تعالى (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا).حيث تأدب بتأدُب تعلقِ على المشيئة، كما أمر اللَّه نبيه محمدا فقال: (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ)[٤٣].

*-وفي قوله"قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(٤٥)" طه.فقوله" أَوْ أَنْ يَطْغَى" أن يزداد طغيانا فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز: باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة[٤٤].

*-وكذلك تأدب في قوله: "قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) طه.أشار إليهم، ولم يأت بـ (كاف) الخطاب تأدبا مع الله، ومعنى (أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي) أنهم على مقربة مني.قال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه ﷻ.ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء:"رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا..."الأعراف: ٣٨. "رَبَّنَا

[٤٢] التحرير والتنوير ٩/٦٢

[٤٣] زهرة التفاسير ٩/٤٥٦٠

[٤٤] الكشاف (٣/ ٦٦) البيضاوى٤ /٥٢

هؤلاء شُرَكَآؤُنَا"النحل:٨٦. أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه[٤٥].

*- أدب أيوب ﷺ:

ومن أثني الله عليهم في كتابه العزيز سيدنا أيوب ﷺ فقد أثني عليه مع الأنبياء وخصه بقوله " نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ص. في مثل هذا المقام مقام البلاء والشدة يحافظ على الأدب والتلطف في إظهار ما يحس به من كرب وشدة مما يدل على أدبه مع ربه قال تعالى " وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)" الأنبياء. قال أبوحيان وقد ألطف أيوب في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب ولم يعين الضر الذي مسه. وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله : «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ» ..ووصف ربه بصفته:"وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئا على ربه، تأدبا معه وتوقيرا. فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار. بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال[٤٦].

[٤٥] زهرة التفاسير (٩/ ٤٧٦٦) تفسير الشعراوي (١٨/ ١٠٩٨٥)

[٤٦] البحر ٦/٣١٠ .

*–وكذا يتلطف ولا ينطق إلا بالخير كما في قوله تعالى"وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ص. حيث نَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْطَان وَإِنْ كَانَتْ الْأَشْيَاء كُلّهَا مِنْ اللَّه تَأَدُّبًا مَعَهُ تَعَالَى[٤٧].

*– أدب سيدنا عيسى عليه السلام:–

وهذا روح الله وكلمته سيدنا عيسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم يوم الهول الأكبر يلتزم الأدب وتعظيم الله جل جلاله قال سبحانه (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) المائدة.

فقوله "سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ" هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأَدُّبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ وقال " إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ " فَلَمْ يَقُلْ بِأَنِّي مَا قُلْتُ هَذَا الْكَلَامَ لِأَنَّ هَذَا يَجْرِي مَجْرَى دَعْوَى الطَّهَارَةِ وَالنَّزَاهَةِ، وَالْمَقَامُ مَقَامُ الْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُعِ، وَلَمْ يَقُلْ بِأَنِّي قُلْتُهُ بَلْ فَوَّضَ ذَلِكَ إِلَى عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِالْكُلِّ.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ وَهَذَا مُبَالَغَةٌ فِي الْأَدَبِ وَفِي إِظْهَارِ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ فِي حَضْرَةِ الْجَلَالِ وَتَفْوِيضِ الْأُمُورِ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ[٤٨].

---

[٤٧] تفسير الجلالين (ص: ٦٠٢)

أدب الخضر عليه السلام:-

أما الخضر الذي رحل إليه سيدنا موسى ليتلقى منه العلم اتلذي خصه الله به من لدنه سبحانه و صحبه مدة ورأى منه العجب العجاب واعترض عليه لما رأي ما يخالف الظاهر انظر كيف كان يجيب ويتلطف في كلامه حتى إنك تنهل من بين كلامه فوائد ودررا تكون لنا زخرا في تعلم الأدب.

لما أجاب عن سر ما صنعه مما اعترض عليه سيدنا موسى عليه السلام قال في جوابه " أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا" وقال" فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً"وقال" فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ الكهف:٧٩-٨٢. فقد قال في الموقف الأول : " فأردت أن أعيبها " وفي الموقف الثاني : " فأردنا " وفي الثالث " فأراد ربك "؛ لأن الأول إفساد في الظاهر فأسنده إلى نفسه ، وفي الثالث إنعام محض فأسنده إلى الله سبحانه ، وفي الثاني إفساد من حيث القتل وإنعام من حيث التبديل فجمع بين الأمرين . وقال أبو حيان وقوله "فَأَرَدْتُ فِيهِ إِسْنَادُ إِرَادَةِ الْعَيْبِ إِلَيْهِ. وَفِي قَوْلِهِ: فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا لِمَا فِي ذِكْرِ الْعَيْبِ مَا فِيهِ فَلَمْ يُسْنِدْهُ إِلَى اللَّهِ، وَلِمَا فِي ذَلِكَ مَنْ فَعَلَ الْخَيْرِ أَسْنَدَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى"[49].

---

[48] تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٣) مفاتيح الغيب ١٢/ ١١٢

[49] البحر المحيط في التفسير (٧/ ٢١٢)

*- أدب إخواننا الجن :-

تلطف إخواننا الجن في كلامهم وتأدبوا بالآداب الحسنة عند الحديث عن رب العالمين ففي قوله تعالى (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) الجن.حِينَ ذَكَرُوا الشَّرَّ لَمْ يُسْنِدُوهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحِينَ ذَكَرُوا الرُّشْدَ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ تَعَالَى. حيث بنوا للمفعول قولهم: " أُرِيدَ " معلمين للأدب في أن الشر يتحاشى من إسناده إليه سبحانه حيث لا إشكال في معرفة أنه لا يكون شيء إلا به " بِمَنْ فِي الْأَرْضِ " أي بهذه الحراسة فينشأ عنها الغي " أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ " أي المحسن إليهم المدبر لهم، بنوه للفاعل في جانب الخير إعلاماً مع تعليم الأدب بأن رحمته سبقت غضبه، وإشارة إلى أنه قد يكون أراد بهذا المنع الخير[٥٠].

*- فوائد منثورة في مقام تعظيم رب العالمين

استدرك علماؤنا عبارات قالوا عنها الأولى تركها تعظيما لله العلى العظيم و تنزيها للملك القدوس منها :-

*- وعَنْ إبْرَاهِيمَ النَّخعِيِّ أَنَّهُ إذَا قَرَأَ (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مغلولة) (وقالت اليهود عزير ابن الله) وَنَحْوَهُمَا خَفَضَ صَوْتَهُ قَلِيلًا [٥١].

[٥٠] البحر المحيط (١٠/ ٢٩٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٧٩)

[٥١] المجموع شرح المهذب (٢/ ١٦٨)

*- قَالَ مُطَرِّفٌ: " لِيُعَظَّمْ جَلَالُ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوهُ عِنْدَ الْحِمَارِ وَالْكَلْبِ، فَيَقُولُ أَحَدُكُمْ لِكَلْبِهِ أَوْ لِشَاتِهِ: أَخْزَاكَ اللهُ وَفَعَلَ اللهُ بِكَ "[٥٢] .يعنى لا تذكر اسم الله إلا بالإجلال والتعظيم.

*- عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: " لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: نَعِمَ اللهُ بِكَ عَيْنًا، فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْعَمُ عَيْنُهُ بِأَحَدٍ، وَلْيَقُلْ: أَنْعَمَ اللهُ بِكَ عَيْنًا "[٥٣] .

*- قَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: مَا أَجْرَأَ فُلَانًا عَلَى اللهِ! فَقَالَ الْقَاسِمُ: ابْنُ آدَمَ أَهْوَنُ وَأَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَكُونَ جَرِيئًا عَلَى اللهِ، وَلَكِنْ قُلْ: مَا أَقَلَّ مَعْرِفَتِهِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ![٥٤] .

*- سُئِلَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ الرَّجُلِ يَدْعُو يَقُولُ: يَا سَيِّدِي فَقَالَ: يُعْجِبُنِي أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءِ الْأَنْبِيَاءِ رَبَّنَا رَبَّنَا[٥٥] .

*- "كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمَرْأَةِ، طَمِثَتْ وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى حَاضَتْ»[٥٦] .

---

[٥٢] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٠٩) الحاوي للفتاوي١/ ٢٣١

[٥٣] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٠٣)

[٥٤] المجالسة وجواهر العلم للدينوري رقم : ٩٥٩

[٥٥] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٢٠)

[٥٦] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٥)

*- لا يُقال (حكى الله)؛لأن الحكاية الإتيان بمثل الشيء وليس لكلامه تعالى مثل .وإن تساهل قوم فأطلقوا لفظ الحكاية بمعنى الإخبار

الْحِكَايَة: هِيَ إِيرَاد اللَّفْظ على اسْتِيفَاء صورته الأولى وَقيل: الْإِتْيَان بِمثل الشَّيْء، وحكايات الْقُرْآن عَن الْغَيْر إِنَّمَا هُوَ مُعرب عَن معانيهم وَلَيْسَ بِحَقِيقَة ألفاظهم ، فَلَا يُقَال كَلَام الله محكي، وَلَا يُقَال أَيْضا: حكى الله كَذَا، إِذْ لَيْسَ لكَلَامه مثل وتساهل قوم فِي إطْلَاق لفظ الْحِكَايَة بِمَعْنى الْإِخْبَار [57]. وإن وردت العبارة في كتب الإمام الشافعي فإن مدلولها بعد عصره دل على أمر غير ما كان يقصده الشافعي-وهذا ما قاله لي شيخنا الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد حفظه الله- أما من ذكره ممن هو متأخر عن الشافعي فهو تساهل منه.

*- ذكر العلامة الزمخشرى كلمة في تفسيره رأى العلامة بن المنير أنها لا تليق بكتاب الله المجيد فتعقبه قائلا: قال محمود: «إن قلت قد ناقض هذا قوله: فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وسؤال الأدب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه؟ ولو سأل سائل عمر بن الخطاب ﷺ عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرة.[58]

---

[57] الإتقان في علوم القرآن ٤/١٩٩ الكليات (ص: ٤٠٩)

[58] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٠٣)

*- بعضهم يقول وصدق الله إذ يقول وهذا يوهم التوقيت بهذا القول فقط والأولى من ذلك وصدق الله القائل أو الذي قال

*- كما أننا نجد من يفسر خطاب الله للنبي ﷺ يقول أي يا محمد ولو أننا فسرنا القرآن بالقرآن لقلنا أي يا أيها النبي فالله جل في علاه لم يخاطب نبيه باسمه فلنفسر القرآن بالقرآن ولنكرم خير الأنام عند ذكر اسمه أو ذكر ضميرا راجعا إليه ﷺ.

*- ومن تلطلف الإمام الشافعي ﷺ قوله: (يكره أن يقال: «قال الرسول» ، ولكن «قال رسول الله ﷺ» تعظيما له) أي: لأن لفظ الرسول يشمل غير النبي، فلا تعظيم فيه، ولا ينافيه قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ)؛لأنه سبحانه وتعالى يخاطب عبده بما شاء، على أن فيه غاية التعظيم؛ إذ معناه: يا أيها الرسول عنّي، بخلافه من غيره؛ فإنه ليس نصّا في ذلك، وإن قال عقبه: ﷺ.[٥٩]

*- وقد استدرك الحافظ الذهبي عبارة موهمة الأولى التلطف عند الحديث عن أمر الله تعالى فقد روى عن عكرمة أنه قال: إنما أنزل الله متشابه القرآن ليضل به.فهرع الذهبي

---

[٥٩] الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود (ص: ١٠٩) المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي ، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)عني به: بوجمعة عبد القادر مكري ومحمد شادي مصطفى عربش الناشر: دار المنهاج – جدة

الطبعة: الأولى – ١٤٢٦ هـ

إلى تنزيه الله ﷻ فقال قلت: هذه عبارة رديئة، بل إنما أنزله الله تعالى ليهدي به المؤمنين، وما يضل به إلا الفاسقين، كما أخبرنا ﷷ في سورة البقرة[٦٠].

*- عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، قَالَ:اهْتَدَيْنَا فِي العِلْمِ بِأَرْبَعَةٍ: اثْنَانِ بِمِصْرَ، وَاثْنَانِ بِالمدِيْنَةِ، عَمْرُو بنُ الحَارِثِ وَاللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ بِمِصْرَ، وَمَالِكٌ وَابْنُ المَاجَشُوْنِ بِالمدِيْنَةِ، لَوْلاَ هَؤُلاَءِ لَكُنَّا ضَالِّينَ.

قال الحافظ الذهبي:قُلْتُ: بَلْ لَوْلاَ اللهُ لَكُنَّا ضَالِّينَ، اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا[٦١].

*- الأدب أن لا يضرب كلمات القرآن مثلاً لواقعة دنيوية

عن إبراهيم النحعى قال : كانوا يكرهون أن يتناولوا من القرآن عندما يعرض من أحاديث الدنيا قيل لهشيم نحو قوله : "جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠)" طه. قال : نعم[٦٢].

*- ومن صور تعظيم شرع الله والتأدب مع كتاب الله وسنة رسوله تلطف الحافظ ابن حجر ق في تعبيراته منها ما قاله في مبحث تعارض الدليلين المقبولين حيث قال:

فصارَ ما ظاهِرُهُ التَّعارُضُ واقِعاً على هذا التَّرتيبِ:

١- الجَمْعُ إنْ أَمكَنَ. ٢- فاعْتبارُ النَّاسِخِ والمنْسوخِ. ٣- فالتَّرْجيحُ إنْ تَعَيّن.

[٦٠] سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي: ٥/٣٣

[٦١] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٦/ ٣٥١)

[٦٢] الحاوي للفتاوي للإمام السيوطي: ١/ ٢٣١

٤- ثمَّ التوقُّفُ عنِ العَمَلِ بأَحَدِ الحديثين٢. والتَّعبيرُ بالتوقُّفِ أَولى مِن التَّعبيرِ بالتَّساقُطِ[٦٣]؛ لأَنَّ خفاءَ ترجيحِ أحدِهما على الآخَرِ إِنَّما هُو بالنسبة لِلمُعْتَبِرِ في الحالةِ الرَّاهنةِ، معَ احتمالِ أَنْ يَظْهر لغيرِهِ ما خَفِيَ عليهِ. واللهُ أعلمُ[٦٤].

*- وتلطف علماء اللغة في تعبيراتهم حيث يقولون : باب ما لم يُسَمَّ فاعله ، أفضل من باب المبني للمجهول، وهذا من الأدب ، عندما نُعرب فعلاً في القرآن الكريم لا سيما مما في فعل الله العلى الأعلى، مثل فلا يُقال مبني للمجهول.بل يقال فعل لم يسم فاعله ويدل على المقصود بأدب وتوقير لاسم الله تعالى

*- ومن ذلك مراعاة الأدب مع الله تعالى، كقوله في قولنا: دعوتُ اللهَ: "منصوب على التعظيم"، بدلا من "مفعول به".

*- الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَمَالِ قَالَ سِيبَوَيْهِ تَكُونُ لَامُ التَّعْرِيفِ لِلْكَمَالِ تَقُولُ زَيْدٌ الرَّجُلُ تُرِيدُ الْكَامِلَ فِي الرُّجُولِيَّةِ، وَكَذَلِكَ هِيَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِذَا قُلْت " الرَّحْمَنُ " أَيْ الْكَامِلُ فِي مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْعَلِيمُ أَيْ الْكَامِلُ فِي مَعْنَى الْعِلْمِ، وَكَذَلِكَ تَتِمَّةُ الْأَسْمَاءِ فَلَيْسَتْ لِلْعُمُومِ وَلَا لِلْعَهْدِ وَلَكِنْ لِلْكَمَالِ [٦٥]

*- وكذا لا يقال : عن حرف قي القرآن الكريم بأنه زائد كما نبه على ذلك أئمة التحقيق في التفسير فلا تقل زائد بل قل صلة ونحوها قال الشهاب الخفاجي:صلة أي

---

[٦٣] فقد قيل إن الدليلين إذا تعارضا تساقطا أي تساقط حكمهما وما قاله الحافظ يدل على توقيره لشرع الله تعالى

[٦٤] نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ت الرحيلي (ص: ٩٧) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٤/ ٧٠)

[٦٥] حاشية الجمل = فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (٥/ ٢٩٠)

زائدة للتأكيد، وهم يعبرون عن مثله بالصلة تأدّباً، وهرباً من إطلاق الزائد عليه لأنه ليس زائدا مستغنى عنه بلا فائدة بلى لا بد فيه ما يحسنه في الجملة. وقال أيضا : قوله صلة أي زائدة لأنّ الزائد يسمى صلة في القرآن تأدّباً لأنه صلة لتزيين اللفظ، وتقويته[٦٦].

*- وقال الشهاب أيضا وهو على الجرّ من عطف التوهم لكنه إذا وقع في القرآن يسمى العطف على المعنى تأدبا [٦٧].

*-تعليم الآداب من صور تكريم الله لبني آدم :

تعددت صور تهذيب القرآن للمؤمنين نأخذ منها بعضها تكون دليلا على غيرها،و وذلكم رسول الله ﷺ يريد أن نتميز بأدبنا وخلقنا وهدينا وسمتنا حتى نكون كالشامة بين الأمم يَقُولُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ « إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِى النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلاَ التَّفَحُّشَ »قال ابن حجر: هذا حديث حسن[٦٨]. قال أَبُو العَالِيَةِ :زَارَنِي عَبْدُ الكَرِيْمِ أَبُو أُمَيَّةَ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ صُوْفٌ، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا زِيُّ الرُّهْبَانِ، إِنَّ المسْلِمِيْنَ إِذَا تَزَاوَرُوا، تَجَمَّلُوا.[٦٩].

---

[٦٦] حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي (٤/ ٢٨٦) (٨/ ٣٤)

[٦٧] حاشيه الشهاب (٧/ ٣٨١)

[٦٨] سنن أبي داود:٤/٥٧ رقم:٤٠٨٩ المعجم الكبير ٦/٩٤ للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد ابن أيوب الطبراني الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي

[٦٩] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢١٣)

*- قال تعالى "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) الكهف . قَالَ أَيُّوْبُ السِّخْتِيَانِيُّ: رَآنِي أَبُو قِلاَبَةَ وَقَدِ اشْتَرَيْتُ تَمْراً رَدِيْئاً، فَقَالَ:أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ نَزَعَ مِنْ كُلِّ رَدِيْءٍ بَرَكَتَهُ[٧٠]

.

*- ومن ذلك تحسين الأسماء واختيار الأفضل منها وقد غير النبي أسماء كثير من لصحابة مما فيه نفرة أو غلظة وفغيرها بأسماء حسنة   فمن ذلك

*- لما وفد بَنو غيان على النَّبِي ﷺ، فَقَالَ: من أَنْتُم؟ قَالُوا ابْن الربعة بن غيان، فَقَالَ: بل أَنْتُم بَنو رشدان[٧١].

*- قَالَ بَشِيرٌ ابْنُ الْخَصَاصِيَةِ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ قَالَ لِي: «مَا اسْمُكَ؟» قُلْتُ: نَذِيرٌ قَالَ: «بَلْ أَنْتَ بَشِيرٌ»[٧٢]

*-ومنهم من كَانَ اسْمُهُ غَافِلاً، فَسَمَّاهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَاقِلاً.وهو عَاقِلُ بنُ البُكَيْرِ بنِ عَبْدِ يَا لَيْل بنِ نَاشِبٍ اللَّيْثِيُّ[٧٣] .

---

[٧٠] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٤٧٢)

[٧١] توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم : ٤٣٧/٦ المؤلف / ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله القيسي الدمشقي مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٩٣م الطبعة : الأولى

[٧٢] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦)

[٧٣] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١/ ١٨٥، ١٨٦)اسْتُشْهِدَ عَاقِلٌ يَوْمَ بَدْرٍ شَهِيْداً، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً.

*– قال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ" البقرة:١٠٤.فهذا تأديب وتزكية للمؤمنين يتلطفوا في التعبير ويتأدبوا في الحديث مع رسول الله وسوف نفرد مبحثا للحديث عن توقير رسول الله وأنه من الأوامر الإلهية

*– ومن صور تعليم القرآن للأمة التلطف أن ما يفحش ذكره في السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع قَالَ تَعَالَى : "وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً" أي: كنوا عن لفظه ولم يوردوه على صيغته،ومنه قوله تعالى في جواب قوم هود: "إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ" "قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" فكنى عن تكذيبهم بأحسن.

*–وقوله: (هُوَ أَذىً، فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ) ، (مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) ، (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام اللَّه آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدّبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم.

*–ومنه قوله: "وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً" فكنى عن الجماع بالسر

ومن عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح ونحوهن قَالَ تَعَالَى : "فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ" فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين وقوله تعالى: "أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ" إذ لا يخلوا الجماع عن الملامسة [٧٤]. وقال نحوه الإمام النووى:.... وَالْمُسْتَحَبُّ فِي مِثْلِ هَذَا الْكِنَايَةُ عَنْ قَبِيحِ الْأَسْمَاءِ وَاسْتِعْمَالِ

---

[٧٤] تفسير الزمخشري (١/ ٢٦٦)

الْمَجَازِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُحَصِّلُ الْغَرَضَ وَلَا يَكُونُ فِي صُورَتِهَا مَا يُسْتَحْيَا مِنَ التَّصْرِيحِ بِحَقِيقَةِ لَفْظِهِ وَبِهَذَا الْأَدَبِ جَاءَ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ وَالسُّنَنُ ...[٧٥]

*- قَالَ تَعَالَى (وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ)

فحش معناها زاد، وأطلق على الزيادة التي لَا تسر، وأطلق على القبيح من الأفعال، لأنه انحراف عن الفطرة. وقد جاء في مفردات الراغب: " الفُحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال "، وقَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُر بِالْفَحْشَاءِ). (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْى).(مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مبَيِّنَةٍ)، (إِنَّ الَّذِين يُحِبُّونَ أَنِ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)، (إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيِّ الْفَوَاحِشَ)، (إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مبَيِّنَةٍ)، كناية عن الزنا، وكذلك قوله تعالى: (وَاللَّاتِي يَّأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ).فالفاحشة هنا هي الزنا، والله سبحانه وتعالى يعبر عن هذه المعاني التي لا تألفها النفس الكريمة بعبارات تسترها، فتكون الكناية بدل التصريح، وذلك من تأديب الله لنا في التعبير[٧٦].

*- قَالَ تَعَالَى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) الفتي في كلام العرب الشاب ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي فهذا ندب إلى التواضع والفتى في الآية هو الخادم[٧٧]

[٧٥] شرح النووي على مسلم (١/ ٢٣٧)

[٧٦] زهرة التفاسير المؤلف: محمد أبو زهرة ١٦٠٩/٣ دار النشر: دار الفكر العربي

[٧٧] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - دار الكتب العلمية (٣/ ٥٥٣)

*- وقولُه: {كعصفٍ مأكولٍ} [الفيل: ٥] من أحسنِ الكنايات؛ وذلكَ أنَّ العصفَ هو ورقُ الزرعِ كالتبنِ ونحوِهِ، فشبَّههم به بعد أن أُكلَ. أراد أن يُشبِّههم بالزُّبل، فنزَّه اللفظَ عن ذكرِهِ كعادةِ آدابِ القرآنِ. ومثلُه في المعنى: {كانا يأكلانِ الطعامَ} [المائدة: ٧٥]أي يتخلَّيان، ومَن كان كذلكَ فلا يصلحُ أن يُعبدَ مِن دونِ اللهِ.[٧٨]

الأدب مع رسول الله ﷺ

لسيدنا رسول الله ﷺ المقام المحمود عند ربه جل جلاله وأمرنا الله تعالى بتوقيره وحسن الأدب معه قَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وقال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)الحجرات: ٢-٥ .

*- وَيَنْبَغِي لِلْحَالِفِ أَنْ لَا يَتَسَاهَلَ فِي الْحَلِفِ بِالنَّبِيِّ ﷺ لِكَوْنِهِ غَيْرَ مُوجِبٍ لِلْكَفَّارَةِ سِيَّمَا إذَا حَلَفَ عَلَى نِيَّةِ أَنْ لَا يَفْعَلَ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَجُرُّ إلَى الْكُفْرِ لِعَدَمِ تَعْظِيمِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ[٧٩]

---

[٧٨] عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (١/٩٩، ١٠٠)

[٧٩] حاشية الجمل على شرح المنهج = فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (٥/ ٢٨٨)

*- آداب من بيت النبوة

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) سورة الأحزاب.

سبب نزول الآية عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ "الْآيَةَ "[80]. قال الزجاج : (وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) وكان النبي ﷺ يحتمل إطَالَتَهُمْ كرماً منه فيصبر على الأذَى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدَبَ فصار أَدَباً لهم ولمن بعدهم.[81]

[80] صحيح البخاري) رقم ٤٤١٧ ، ٤٤١٨ ، ٤٤١٩ مسلم باب زَوَاجِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَنُزُولِ الْحِجَابِ وَإِثْبَاتِ وَلِيمَةِ الْعُرُسِ.... . رقم ١٤٢٨

[81] معاني القرآن ٤/٢٣٥

التلطف مع رسول الله ﷺ:-

*-منه قَوْلُهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنَبِيِّهِ ﷺ (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) سورة القصص. وَقَالَ فِي قصة مُوسَى "وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جانب الطور الأيمن" ،وَالْمَكَانُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ، لكن لَمَّا نَفَى سُبْحَانَهُ عَنْ رَسُولِهِ أَنْ يَكُونَ بِالْمَكَانِ الَّذِي قَضَى لِمُوسَى فِيهِ الْأَمْرَ عَرَّفَ الْمَكَانَ بِالْغَرْبِيِّ وَلَمْ يَقُلْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْأَيْمَنَ كَمَا قَالَ: "وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ" تكريما للنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُنْفَى عَنْهُ كَوْنُهُ بِالْجَانِبِ الْأَيْمَنِ-الْأَيْمَنَ إِمَّا مُشْتَقٌّ مِنَ الْيُمْنِ وَهُوَ الْبَرَكَةُ أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الْمَادَّةِ - وَلَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مُوسَى ﷺ ذَكَرَ الْجَانِبَ الْأَيْمَنَ تَشْرِيفًا لِمُوسَى فَرَاعَى فِي الْمَقَامَيْنِ حُسْنَ الْأَدَبِ مَعَهُمَا رِفْقًا بِهِمْ فِي الْخِطَابِ وَإِكْرَامًا لهما و تَعْلِيمًا لِلْأُمَّةِ وَهُوَ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي الْأَدَبِ فِي الْخِطَابِ[٨٢].

*- ومن تلك اللطائف الرقيقة التي نتعلمها من القرآن الكريم في توقير الرسول الكريم عند مخاطبته ونداءه يناديه ب(أَيُّهَا النَّبِيُّ أو أَيُّهَا الرَّسُولُ) فنقول إذا أردنا أن نبين ضميرا له قال الله أَيُّهَا الرَّسُولُ أو أَيُّهَا النَّبِيُّ لا كما يستسهل بعضهم فيقول يقول الله يا محمد؛ لأن الله ناده هكذا ولم يقل له يا محمد.تعظيم الله نبيه يعلمنا وجوب توقيره ﷺ.

تعليم الله لعباده كيف يكلمون النَّبِيّ ﷺ:-

قَالَ تَعَالَى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ" البقرة:١٠٤.في أول نداء لِلَّذِينَ آمَنُوا في ترتيب المصحف فهذا تأديب وتزكية للمؤمنين يتلطفوا في التعبير ويتأدبوا في الحديث مع رسول الله، لا تقولوا للنبي ﷺ " راعنا " وإن كنتم تقصدون بها الرعاية والمراقبة ، فقد اغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة

[٨٢] البرهان ٣/٦٦ و ٤/٦٢

عندهم فصاروا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون بها الرعونة وهي إفراط الجهالة أو لِأَنَّ مَعْنَاهَا ارْعَنَا نرعك فَنُهُوا عَنْ قَوْلِهَا إِذْ مُقْتَضَاهَا كَأَنَّهُمْ لَا يَرْعَوْنَهُ إِلَّا بِرِعَايَتِهِ لَهُمْ بَلْ حَقُّهُ أَنْ يُرْعَى عَلَى كُلِّ حال،وَفِي الْمُخَاطَبَةِ بِهَذَا جَفَاءٌ، فَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَخَيَّرُوا مِنَ الْأَلْفَاظِ أَحْسَنَهَا وَمِنَ الْمَعَانِي أَرَقَّهَا. وَقِيلَ كَانَت اليَهُودُ تُعَرّضُ بها للنبي صَلَّى ﷺ بالرُّعُونَةِ فَنُهِيَ المسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا قَطْعًا لِلذَّرِيعَةِ وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال : " وقولوا انظرنا " فأبقى المعنى وصرف اللفظ[٨٣] ..(واسمعوا ، أي: وأحسنوا سماع ما يكلمكم رسولُ الله ﷺ و يلقي إليكم من المسائل بآذان واعية وأذهانٍ حاضرةٍ حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلبِ المراعاة ، أو واسمعوا ما كُلفتموه من النهي والأمر بجدَ واعتناء حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه، أو واسمعوا سماعَ طاعةٍ وقَبول ولا يكن سماعُكم مثل سماعِ اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا)[(٨٤)]

*- أما قوله تعالى (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) البقرة. أي الشاكين في كتمانهم الحق عالمين به وقيل في الشاكين أنه من ربك وليس المراد به نهى الرسول عن الشك فيه ؛ لأنه غير متوقع منه عليه السلام وليس بقصد واختيار- أي أن الشك لا يحصل بالقصد والاختيار- بل إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر،فالنهى يدل على أنه قد بلغ في الوضوح مبلغاً بحيث لا ينبغي أن يشك فيه عاقل أصلاً وناظر قطعاً، وهذا اللازم هو المراد من النهى ففي النظم كناية أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ، والمقصود التعريض بغيره ، والمعرَّض بهم هنا هم النصارى الممترُون الذين امتروا في الإلهية بسبب تحقق أن لاَ أبَ لِعيسى و قال أبو حيان : والنهي

[٨٣] تفسير القرطبي (٢/ ٥٧)نظم الدرر ٢/٨٦ .

[٨٤] إرشاد العقل السليم ١/١٤١ الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٣٧)

عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل . فقولك : لا تكن ظالماً، أبلغ من قولك: لا تظلم ، لأن لا تظلم نهي عن الالتباس بالظلم. وقولك: لا تكن ظالماً نهي عن الكون بهذه الصفة. والنهي عن الكون على صفة، أبلغ من النهي عن تلك الصفة، إذ النهي عن الكون على صفة يدل بالوضع على عموم الأكوان المستقبلة على تلك الصفة ، ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة . والنهي عن الصفة يدل بالوضع على عموم تلك الصفة . وفرق بين ما يدل على عموم ، ويستلزم عموماً ، وبين ما يدل على عموم فقط ، فلذلك كان أبلغ ، ولذلك كثر النهي عن الكون . قَالَ تَعَالَى " فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ " وقال "وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ" وقال " فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ". والكينونة في الحقيقة ليست متعلق النهي . والمعنى : لا تظلم في كل أكوانك ، أي في كل فرد من أكوانك ، فلا يمر بك وقت يوجد فيه منك ظلم ، فتصير كان فيه نصاً على سائر الأكوان ، بخلاف لا تظلم ، فإنه يستلزم الأكوان . وأكد النهي بنون التوكيد مبالغة في النهي ، وكانت المشدّدة لأنها أبلغ في التأكيد من المخففة . والمعنى : فلا تكونن من الذين يشكون في الحق. ثم إنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحرك نشاطه و ألهبت مشاعره فيزداد في الثبات على اليقين كما أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزجر عما يورث الامتراء ؛ لأنه ﷺ مع جلالة قدره وعلو منزلته وقربه من ربه، إذا خوطب بمثل هذا الخطاب، فما يظن بغيره ففي ذلك زيادة ثبات له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ونهي النبي عليه السلام في عبارة اقتضت ذم الممترين وهذا يدل على أن المراد غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ولو قيل فلا تكن ممترياً لكانت هذه الدلالة أقل ولو قيل فلا تمتر لكانت أقل[٨٥] .

---

[٨٥] مستفاد من المحرر الوجيز ١/ ٤٤٧ وحاشيتي ابن التمجيد و القونوني ٤/٣٤٤، ٣٤٥ التحرير والتنوير ٣/٢٦٤ و البحر

*- ومن صور الأدب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقيره وتعظيمه في القلوب والنفوس.

قال تعالى " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩)" الفتح.

وقَالَ سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي) وَقَالَ تَعَالَى (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بعضا) فأوجب تعالى تعذيره وَتَوْقِيرَهُ وَأَلْزَمَ إِكْرَامَهُ وتعظيمه، قال ابن عَبَّاس تُعَزّرُوهُ تُجِلُّوه وَقَالَ المِبَرّدُ تُعَزّرُوهُ تُبَالغُوا فِي تَعْظِيمِهِ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ تنصُرُونَهُ، وقَالَ الطَّبَرِيُّ تُعِينُونَهُ، وَقُرِئَ تعززوه بزاءين مِنَ العِزّ، وَنَهى عَنِ التَّقَدُّمِ بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس وغيره... فالواجب علينا الأدب مع رسول الله و توقيره .

*- قِيلَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ: أَيُّمَا أَكْبَرُ أَنْتَ أَمِ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ: «هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي وَأَنَا وُلِدْتُ قَبْلَهُ»[٨٦]

*-لما ناظر أَبُو جَعْفَرٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكًا فِي مَسْجِدِ رسول الله ﷺ قال لَهُ مَالِكٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِي هَذَا المسْجِدِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدَّبَ قَوْمًا فَقَالَ (لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي) الآيَة، وَمَدَحَ قَوْمًا فَقَالَ (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ

١/٦١٠

[٨٦] مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨)،المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٦٢)، المجالسة وجواهر العلم (٨/ ٧٥)،سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢/ ٨٠)قال الهيثمى: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٧٠)

رسول الله) الآيَةَ، وَذَمَّ قَوْمًا فَقَالَ (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ) الآيَةَ وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مَيتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا فَاسْتَكَانَ لَهَا أَبُو جَعْفَرٍ وَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُو أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللَّهِ صﷺ؟ فَقَالَ وَلِم تَصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عيه السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ بَلِ اسْتَقْبِلْهُ واسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعهُ اللَّهُ قَالَ اللَّهُ تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظلموا أنفسهم) الآيَةَ.

*- قال حَمَّادُ بنُ زَيْدٍ يَقُوْلُ فِي قَوْلِهِ: {لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحُجُرَاتُ: ٢]قَالَ: أَرَى رَفْعَ الصَّوْتِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَرَفعِ الصَّوْتِ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، إِذَا قُرِئَ حَدِيْثُهُ، وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تنصِتَ لَهُ، كَمَا تنصِتُ لِلْقُرْآنِ [٨٧].

ولما كَثُرَ عَلَى مَالِكٍ النَّاس قِيلَ لَهُ لو جَعَلْتَ مُسْتَمِليًا يُسْمِعُهُمْ، فَقَالَ قَالَ الله تعالى (يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي) وَحُرْمَتُهُ حَيًّا وَمَيّتًا سَوَاء،

*- وكَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَنْحَنِي حَتَّى يَصْعُبَ ذَلِكَ عَلَى جُلَسَائِهِ فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَما أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بن الْمُنْكَدِرِ وَكَانَ سَيّدَ الْقُرّاءِ لَا نكاد سأله عَنْ حَدِيثٍ أَبدًا إِلَّا يَبْكِي حَتَّى نَرْحَمَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرِ بن مُحَمَّدٍ وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّم فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيّ ﷺ اصْفَرَّ وَمَا رأيته يُحَدِّثُ عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ إلَّا عَلَى طَهَارَةٍ، وَلَقَد اخْتَلَفْتُ إلَيْهِ زَمَانًا فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ إلَّا عَلَى ثَلَاثِ خِصَال إمَّا مُصَلّيًا وإما صامتا وَإِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يعْنِيهِ وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبّادِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّه ﷻ، وَلَقَدْ كَانَ عَبْد الرَّحْمنِ بن الْقَاسِمِ يَذْكُرُ النَّبِيّ ﷺ فَيُنْظَرُ إِلَى لَوْنِهِ كَأَنَّهُ نُزِفَ مِنْهُ الدَّمُ وَقَدْ جفَّ لِسَانُهُ فِي فَمِهِ هَيْبَةً

[٨٧] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٤٦٠)

مِنْهُ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي عَامِرَ بن عَبْد اللَّه بن الزُّبَيْرِ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكى حَتَّى لَا يَبْقَى فِي عَيْنَيْه دُمُوعٌ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ وَكَانَ من أهْنأ النَّاسِ وَأقْرَبِهِمْ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيّ ﷺ فَكَأَنَّهُ مَا عَرَفَكَ ولا عرفته، لقد كُنْتُ آتي صَفْوَانَ بن سُلَيْمٍ وَكَانَ مِنَ المتعبدين المُجْتَهِدِينَ فَإِذَا ذُكِرَ النَّبِيّ ﷺ بَكى فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُوم النَّاسُ عَنْهُ وَيَتْرُكُوهُ... وَكَانَ ابن سِيرِينَ رُبَّمَا يَضْحَكُ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ حَدِيث النَّبِيّ ﷺ خَشَعَ وَكَانَ عَبْد الرَّحْمنِ بن مَهْدِيّ إذَا قَرَأ حَدِيثَ النَّبِيّ ﷺ أمَرَهُمْ بِالسُّكُوتِ وَقَالَ (لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صوت النبي) ويتأول أنه يجب لَهُ مِنَ الإنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءةِ حَدِيثِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عِنْدَ سِمَاعِ قَوْلِهِ. سُئِلَ مَالِك عَنْ أيوبَ السَّخْتِيَانِي فقَالَ – مَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أحَدٍ إلَّا وَأيُّوبُ أفْضَلُ مِنْهُ، قَالَ وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ فَكُنْتُ أرْمُقُهُ وَلَا اسْمَعُ مِنْهُ غيرا أنَّهُ كَانَ إذَا ذُكِرَ النَّبِيّ ﷺ بَكى حَتَّى أرْحَمَهُ فَلَمّا رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ وَإجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ[٨٨].

*– عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ : (إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَظُنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْنَاهُ وَأَهْدَاهُ وَأَتْقَاهُ)[٨٩] . قال السندي رحمه الله :قَوْلُهُ: الَّذِي هُوَ أَهْنَاهُ أَيِ الَّذِي هُوَ أَوْفَقُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ وَأَهْدَى وَأَلْيَقُ بِكَمَالِ هُدَاهُ وَأَتْقَاهُ أَيْ وَأَنْسَبُ بِكَمَالِ تَقْوَاهُ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ صَوَابٌ وَنُصْحٌ وَاجِبُ الْعَمَلِ بِهِ لِكَوْنِهِ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَلَّغَهُ النَّاسَ بِلَا زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ[٩٠] *– حَدَّث ابْنُ عُيَيْنَةَ– وَالشَّافِعِيُّ حَاضِرٌ– أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ

---

[٨٨] الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٣٥-٤٣)

[٨٩] سنن ابن ماجه (١/ ٩)، مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٣٠٥)إسناده صحيح على صرط الشيخين ، وقال البوصيري : "هذا إسناد صحيح ، ورجاله محتج بهم في الصحيحين" "مصباح الزجاجة" (٤٧/١) .وروي ذلك . أيضا . عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه .

[٩٠] حاشية السندي كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٢) أبو الحسن، نور الدين محمد بن عبد الهادي السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ)الناشر: دار الجيل – بيروت،

بِهِ رَجُلٌ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ،وَهُوَ مَعَ امْرَأَتِهِ صَفِيَّةَ، فَقَالَ: تَعَالَ هَذِهِ امْرَأَتِي صَفِيَّةُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ» ، فَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ لِلشَّافِعِيِّ: مَا فِقْهُ هَذَا الْحَدِيثِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ الْقَوْمُ اتَّهَمُوا النَّبِيَّ ﷺ كَانُوا بِتُهْمَتِهِمْ إِيَّاهُ كُفَّارًا، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدَّبَ مَنْ بَعْدَهُ، فَقَالَ: إِذَا كُنْتُمْ هَكَذَا، فَافْعَلُوا هَكَذَا، حَتَّى لا يُظَنَّ بِكُمْ ظَنُّ السَّوْءِ، لا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُتَّهَمُ، وَهُوَ أَمِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَرْضِهِ.فَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا يَجِيئُنَا مِنْكَ إِلا كُلُّ مَا نُحِبُّهُ "[٩١].

*- قال الشافعي ﷺ في بعض نصوصه : وقطع رسول الله ﷺ امرأة لها شرف فكلم فيها فقال : (لو سرقت فلانة : لامرأة شريفة لقطعت يدها) قال ابن السبكي : فانظر إلى قوله فلانة ولم يبح باسم فاطمة تأدباً معها رضي الله عنها أن يذكرها في هذا المعرض وإن كان أبوها ﷺ قد ذكرها لأن ذلك منه ﷺ حسن دال على أن الخلق عنده في الشرع سواء[٩٢].

فائدة: مقام الأنبياء أجل من أن يضرب مثلاً لآحاد الناس:

قد يذكُر أحدهم بَعْض أوْصَافِه أَو يَسْتَشْهِد بِبَعْض أَحْوَالِه ﷺ الْجَائزَة عَلَيْه فِي الدُّنْيا عَلَى طَرِيق ضَرْب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو عَلَى التشبه بِه أَو عِنْد هضيمة –نقيصة– نالته أو غضاضة لحقته لَيْس عَلَى طريق التأسي وطريق التحقيق بَل عَلَى مَقْصِد

[٩١] آداب الشافعي ومناقبه (ص: ٥١، ٥٢).

[٩٢] الحاوي للفتاوي١/٢٢٨، ٢٢٩

التَّرْفِيع لِنَفْسِه أَو لِغَيْرِه أَو عَلَى سَبِيل التّمْثِيل وعدم التّوْقِير لِنَبِيّه ﷺ أَو قَصْد الْهَزْل وَالتنذِير بِقَوْلِه كقول القائِل إن قِيل فِي السُّوء فَقَد قِيل فِي النَّبِيّ أَو إن كُذّبْت فَقَد كُذّب الْأَنْبِيَاء أَو إن أذْنَبْت فَقَد أذْنَبُوا أَو أَنَا أسْلَم من أَلْسِنَة النَّاس وَلَم يَسْلَم مِنْهُم أنبِيَاء اللَّه ورسله أَو قَد صَبَرْت كَمَا صَبَر أُولُو العَزْم أَو كَصَبْر أَيُّوب أَو قَد صَبَر نَبِيّ اللَّه على عِدَاهُ وَحِلْم عَلَى أكْثَر مِمَّا صَبَرْت .

سئل مَالِك عن رَجُل عير رَجُلًا بالْفَقْر قائلا:تعيرني بالْفَقْر وَقَد رَعَى النَّبِيّ ﷺ الغَنَم فَقَال مَالِك قَد عَرّض بِذِكْر النَّبِيّ ﷺ فِي غَيْر مَوْضِعه أرى أَنّ يُؤَدّب قَال: وَلَا يَنْبَغِي لأهل الذُّنُوب إذَا عُوتِبُوا أَنّ يَقُولُوا قَد أخْطَأت الْأَنْبِيَاء قبْلَنَا، وَقَال عُمَر بن عَبْد الْعَزِيز لِرجل: (أنْظُر لَنَا كَاتِبًا يَكُون أبُوه عَرَبِيًّا) فَقَال كَاتِب لَه: قَد كَان أَبُو النَّبِيّ كَافِرًا.فَقَال:جَعَلْت هَذَا مَثلًا فعَزَلَه وَقَال: لَا تَكْتُب لِي أبدًا وَقَد كَرِه سُحْنُون أن يصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْد التَّعَجُّب إلَّا عَلَى طَرِيق الثَّوَاب وَالاحْتِسَاب تَوْقِيرًا لَه وَتَعْظِيمًا كَمَا أمرنا اللَّه .

وَقَال أَبُو الْحَسَن القابسي فِي شابّ معروف بالْخَيْر قَال لِرَجُل شَيْئًا فَقَال لَه الرجل اسْكُت فإنك أمِّيّ فَقَال الشابّ ألْيس كَان النَّبِيّ ﷺ أُمّيًّا إنه مُخْطِئ فِي اسْتِشْهَادِهِ بصِفَة النَّبِيّ ﷺ وَكَوْنُ النَّبِيِّ أُمِّيًّا آيَةٌ لَهُ، وَكَوْنُ هَذا أُمِّيًّا نَقِيصَةٌ فِيهِ وَجَهَالَةٌ، وَمِنْ جَهَالَتِهِ احْتِجَاجُهُ بِصِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ وَتَابَ وَاعْتَرَفَ وَلَجَأَ إِلَى اللَّهِ فَيُتْرَكُ..

و أفتى الْقَاضِي أَبو مُحَمَّدِ بْن مَنْصُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رَجُلٍ تنقَّصَهُ آخَرُ بِشَيْءٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا تُرِيدُ نَقْصِي بِقَوْلِكَ، وَأَنَا بَشَرٌ وَجَمِيعُ الْبَشَرِ يَلْحَقُهُمُ النَّقْصُ حَتَّى النَّبِيِّ ﷺ فَأَفْتَاهُ بِإِطَالَةِ سِجْنِهِ وَإِيجَاعِ أَدَبِهِ، إِذْ لَمْ يَقْصِدِ السَّبَّ. وَكَانَ بَعْضُ فُقَهَاءِ الأندلس أفتى بقتله[٩٣].

*–قال ابن حجر : ينبغي لمن يكون فطناً أن يحذف من الخبر ما يوهم في المخبر عنه نقصاً ولا يضره ذلك بل يجب[٩٤].

*–قال السهيلي في الروض الأنف بعد أن أورد حديث إن أبي وأباك في النار ما نصه : وليس لنا أن نقول نحن هذا في أبويه ﷺ لقوله ﷺ: (لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات) والله تعالى يقول:" إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... " الآية الأحزاب:٥٧.

تتمة: رعي الغنم لم يكن صفة نقص في الزمن الأول لكن حدث العرف بخلافه ولا يستنكر ذلك فرب حرفة هي نقص في زمان دون زمان وفي بلد دون بلد ، ويشهد لذلك كلام الفقهاء في الكفاءة في النكاح وفي المروءة في الشهادات ، والمسألة مسطورة حتى في المنهاج ثم إن الخصم لم يخرج هذه الكلمة إلا مخرج الشتم والتنقيص حيث قال : وأنت يا راعي المعزى صار لك كلام ، ومثل هذا الموطن لا يحتج فيه بأحوال الأنبياء أبداً خصوصاً بين العوام ، هذا لا يقوله من يعلم أنه يلقي الله تعال[٩٥]

---

[٩٣] الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٣٨) وأثر عمر بن عبدالعزيز بحلية الأولياء (٥/ ٢٨٣)

[٩٤] الحاوي للفتاوي١/ ٢٣١

[٩٥] الحاوي للفتاوي١/ ٢٣١

*-الأدب مع العلماء

في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر الكثير من الآداب الرفيعة التى قصها علينا القرآن لنتعلمها ونتبعها،قال الرازى ما ملخصه : اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر . فأحدها : أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال : " هَلْ أَتَّبِعُكَ " . وثانيها : أن استأذن في إثبات هذا التبعية فإنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك وهذا مبالغة عظيمة في التواضع . وثالثها : أنه قال على أن : " تعلمني " وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم . ورابعها : أنه قال : " تُعَلّمَنِ مِمَّا عُلّمْتَ " وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله ، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك ، بل أطلب منك أن تعطيني جزأً من أجزاء علمك ، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزأً من أجزاء ماله . وخامسها : أن قوله : " مِمَّا عُلّمْتَ " اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم . وسادسها : أن قوله : " رَشَدًا " طلب منه للإرشاد والهداية والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال . وسابعها : أن قوله : " تُعَلّمَنِ مِمَّا عُلّمْتَ " معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم ولهذا المعنى قيل أنا عبد من تعلمت منه حرفاً . هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة

من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة وهذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد .
والحادي عشر : أنه قال : " هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن " فأثبت كونه تبعاً له أولاً ثم طلب ثانياً أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

والثاني عشر :أنه قال : " هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن " فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً كان قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم[٩٦] .

*- التلطف مع الأضياف:-

وفي قصة سيدنا إبراهيم ما فيه الكفاية لمن أراد أن يتعلم كيف يعامل ضيوفه ويكرمهم قال تعالى "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ الذاريات (٢٤ -٣٧).

قد تضمنت من الثناء على إبراهيم وتلطفه مع ضيوفه فقوله ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في المكرمين قولين : أحدهما : إكرام إبراهيم لهم ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف والثاني : أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى بل عباد مكرمون وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له فعلى كِلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.وقوله" فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به فإن تحيتهم باسم منصوب

---

[٩٦] مفاتيح الغيب ١٢٨/٢١ ،١٢٩

متضمن لجملة فعلية تقديره : سلمنا عليك سلاما وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم والفعلية تقتضي التجدد والحدوث فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن، ثم قال " قَوْمٌ مُنْكَرُونَ " وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح . أحداهما : أنه حذف المبتدأ والتقدير : أنتم قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش .

الثاني قوله" قَوْمٌ مُنْكَرُونَ" فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع أخر" نكرهم"ولا ريب أن قوله منكرون ألطف من أن يقول أنكرتكم.

وانظر أدب الضيافة وحقوقها التي سارع أدائها عليه السلام،فقوله " فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ " متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف وقوله : " فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ "يتضمن ثلاثة أنواع من المدح

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه ، الثاني : أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا الثالث :أنه سمين وقوله إليهم متضمن المدح وآدابا أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه . وقوله " أَلَا تَأْكُلُونَ " فيه مدح وآداب أخر فإنه عرض عليهم الأكل بقوله " أَلَا تَأْكُلُونَ" وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف[٩٧].وفي ذلك كفاية لمن حفته العناية.

---

[٩٧] زاد المهاجر إلى ربه ص٦٨، ٦٩ للإمام ابن قيم الجوزية مكتبة المدني – جدة

*- تلطف الدعاة مع قومهم:-

للدعاة مكانتهم عند الناس ولهم عند العامة نظرة خاصة لذا اهتم القرآن بذكر ما يليق بالدعاة من أفعال وأقوال فهم أهل أن يقتدي بهم وذكر لنا سبحانه في كتابه المجيد مواقف لأنبياء الله ورسله تكون أسوة لمن أرد أن يهتدي أو يكون سببا لمن اهتدى.

*- (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) الأعراف. وقوله تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)الأعراف.قال الزمخشرى:وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام- من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم- أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله ﷻ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم[98]

*-سيدنا محمد ﷺ الرحمة المهداة كان شديد الحياء يعامل قومه بأفضل أسلوب وتلطف معهم كما علمه ربه سبحانه وتعالى وقد مر بنا الكثير من أخلاقه الحميدة ونشير إلى موقف للدعاة

*- قَالَ تَعَالَى:" يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)الحجرات.فقوله " بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ " يعني لا

[98] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١١٦، ١١٧

منة لكم ومع ذلك لا تسلمون رأساً برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة، بل المنة عليكم، وقوله تعالى : " بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ " حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا علي بل لي المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ، ثم في مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى : " وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢)" الشورى.

*- قَالَ تَعَالَى " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ" الأنعام :١٣٥ . أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق[٩٩].وكذا قوله " أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ " ما دمنا نحن متمسكين بكلمة التوحيد فنحن لا نعبد إلا الله فيكون في النظم الكريم أسلوب التعريضُ بالمحاجين فهم الذين أشركوا بالله و عبدوا المسيح. ففي هذا المقام الذي يود فيه المحاجون أن يلتقطوا كلمة يذيعونها بين الناس وفي هذا المقام الذي وصلت فيه المحاجاة إلى الدعوة إلى المباهلة لم نجد لفظة تُؤخذ على المسلمين إنما التعريض بهم وبطريقتهم في التفكير. يحكى عن الشافعيّ ﷺ أنّ رجلا واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت، لاحتجت إلى أدب.

*- "قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) فِيه زِيَادَة إنصاف إِذْ فرض الْمُؤْمِنُونَ الإجرام فِي جَانب أَنْفُسِهِمْ وَأَسْنَدُوا الْعَمَلَ عَلَى إِطْلَاقِهِ فِي جَانِبِ الْمُخَاطَبِينَ لِأَنَّ النَّظَرَ وَالتَّدَبُّرَ بَعْدَ ذَلِكَ يَكْشِفُ عَنْ كُنْهِ كِلَا الْعَمَلَيْنِ[١٠٠].

---

[٩٩] البيضاوي ٢/ ٤٥٥

[١٠٠] التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٤)

*-سيدنا صالح عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتنةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ واصْطَبِرْ (٢٧)القمر. " فَارْتَقِبْهُمْ " أي فارتقبهم بالعذاب، ولم يقل: فارتقب العذاب إشارة إلى حسن الأدب والاجتناب عن طلب الشر[١٠١].

*- تلطف سيدنا يُوسُف عليه السلام:

*-: من ذلك ما في قوله(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)يوسف.من كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ[١٠٢]

*- ومن ذلك ما قصه علينا جل جلاله عندما تذكر نعم الله عليه أمام إخوته قال تعالى (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)يوسف. وهذا يدل على تلطفه في الحديث معهم وهم الذين فعلوا معه مالا يليق بمقام الأخوة وَلَمْ يَذْكُرِ الْجُبَّ مَعَ أَنَّ النِّعْمَةَ فِيهِ أعظم لوجهين:

أَحَدُهُمَا: لِئَلَّا يَسْتَحْيِي إِخْوَتُهُ وَالْكَرِيمُ يُغْضِي وَلَا سِيَّمَا فِي وَقْتِ الصَّفَاءِ.

وَالثَّانِي: لِأَنَّ السِّجْنَ كَانَ بِاخْتِيَارِهِ فَكَانَ الْخُرُوجُ مِنْهُ أَعْظَمُ بِخِلَافِ الْجُبِّ.. وَأَيْضًا وَلِأَنَّ بَيْنَ الْحَالَيْنِ بَوْنًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ قِصَرُ الْمُدَّةِ فِي الْجُبِّ وَطُولُهَا فِي السِّجْنِ وَأَنَّ الْجُبَّ كَانَ

[١٠١] مفاتيح الغيب ٤٨/٢٩

[١٠٢] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٤٧٧)

فِي حَالِ صِغَرِهِ وَلَا يَعْقِلُ فِيهَا الْمُصِيبَةَ وَلَا تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ كَتَأْثِيرِهَا فِي حَالِ الْكِبَرِ وَالثَّالِثُ أَنَّ أَمْرَ الْجُبِّ كَانَ بَغْيًا وَظُلْمًا لِأَجْلِ الْحَسَدِ وَأَمْرُ السِّجْنِ كَانَ لِعُقُوبَةِ أَمْرٍ دِينِيٍّ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ وَكَانَ أَمْكَنَ فِي نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ"[103].

*- ومن صور تلطف الدعاة مع المدعوين ما نجده في محاورات الأنبياء مع قومهم.

مثلما حاورهم سيدنا نوح قال تعالى (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ (٦١)الأعراف.يقول الألوسي : "ولكني رسول من رب العالمين" وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من يشافههم من الكفرة بالكلمات الحمقاء بما حكي عنهم والاعراض عن مقابلتهم بمثل كلامهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة وفي حكاية ذلك تعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم وفي الآية دلالة على جواز مدح الإنسان للحاجة إليه[104]

*- آداب متنوعة :-

ومن هدي القرآن الذي نتعلمه ألا تنسب كلمة وتضيفها لنفسك مما يسوء ذكره .

ففي قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

[103] البرهان ٦٦/٣، ٦٧ و ٦١/٤

[104] روح المعاني ١٥٦/٨

وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) سورة النور. فانظر كيف يعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنك لا تجري كلمة تدل على ضر أو سوء لا تقولها بصيغة المتكلم فلا تقل عليَّ بل عليه لعنة ، عليه غضب .

وهكذا علمنا نبيه الكريم ففي بعض الروايات "يا ويله " و " يا ويلها" من غير نسبة الكلمة للمتكلم فهذا من آدَاب الْكَلَام وَهُوَ أَنه إِذا عرض فِي الْحِكَايَة عَن الْغَيْر مَا فِيهِ سوء حول الضَّمِير عَن إِلَى نَفسه يَا ويلي يجوز كسر اللَّام وَفتحهَا[١٠٥]

فما أغلى ذلك الأدب القرآني وما أعظم رحمة الرحمن فليكن هذا الأدب ملازما لنا لا تنسب مثل ذلك لنفسك ولا إلى من تخاطبه لا تقل له أمراً لا يليق أن تنسبه له أو تنقل كلام سوء فتقول فلان قال كذا لفلان أو قال عنك كذا ولا تواجه بسؤال قد يتشاءم منه ألم تسمع إلى قول رسولك الكريم لمريض"لا بأس طهور .... يقول لابأس قارن ذلك بمن يقابل مريضاً ويسأله هل عملت عملية هل تذهب إلى طبيب آخر...مثلما يقع من بعض الناس...

*- التلطف عند احتمال أمرين نذكر الأحسن ونقدمه ونترك الأسوء أو نؤخره :

*- فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ" هنا يظهر أدب سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد فقد خَاطَبَهُ بِمُقَدِّمَةِ الصِّدْقِ مُوَاجَهَةً وَلَمْ يُقَدِّمِ الْكَذِبَ لِأَنَّهُ مَتَى أَمْكَنَ حَمْلُ الْخَبَرِ عَلَى الصِّدْقِ لَا يُعْدَلُ عَنْهُ وَمَتَى كَانَ يَحْتَمِلُ وَيَحْتَمِلُ قُدِّمَ الصِّدْقُ ثُمَّ لَمْ يُوَاجِهْهُ بِالْكَذِبِ بَلْ أَدْمَجَهُ فِي جُمْلَةِ الْكَذَّابِينَ أَدَبًا فِي الْخِطَابِ ... وَمِثْلُهُ: "إِنْ كَانَ

[١٠٥] الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج١/٩٦ المؤلف: جلال الدين السيوطي حقق أصله، وعلق عليه: أبو اسحق الحويني الأثري الناشر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ" وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ: "وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ"[١٠٦]

*- ومن باب التلطف الستر على أصحاب المعاصي وعدم ذكر أسمائهم بل يستر عليهم، ففي القرآن " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ "يوسف٢٣. فلم يذكر اسمها ولم يقل امرأة العزيز بل ذكر ما يدل على من قام بالفعل من غير تشهير.وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ حيث يقول ما بال أقوما

وتمثل الصحابة بذلك الخلق الكريم وفإذا روى أحدهم حديثا فيه ما يعيب على أحد لا يذكرون اسمه ولا يعرفونه ولو بعلامة فيأتي شراح للحديث ويقولون لا نعرف من المقصود بكذا ولعلهم تركوا ذكره سترا عليه فلم يصرح باسم من فعل [١٠٧]

---

[١٠٦] البرهان ٦٣/٣

[١٠٧] هذا ما تعلمناه من القرآن الكريم أما في كتب أهل الكتاب تجد اسم من سرق و اسم من زنى بل يذكرون اسم من زنى بها مثلا عاجر اسم الذي غل شبئا في زمن يوشع بن نون ... وخرجت دينه ابنة ليئة التى ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض ،فرآها شكيم بن حمور الحوى رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها "سفر التكوين اصحاح ٣٤" و كسبتي المرأة التى زنى بها زموري بن شالوم فقتلهما فنحاس بن اليعزر بن هارون عبدالرحيم صـ ١٥١

*- فوائد منثورة :-

*-مَرَّ رَجُلٌ عَلَى زِرٍّ وَهُوَ يُؤَذِّنُ، فَقَالَ: يَا أَبَا مَرْيَمَ، قَدْ كُنْتُ أُكْرِمُكَ عَنْ ذَا.قَالَ: إِذاً لاَ أُكَلِّمُكَ كَلِمَةً حَتَّى تَلْحَقَ بِاللهِ[108].كأنه استهان بالآذان وهذا لا يليق لذا حلف زر بن حبيش ألا يكلمه كى يتأدب مع شرع الله تعالى.

*- قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ:" أَدْرَكْتُ أَرْبَعَةً هُمْ أَفْضَلُ مَنْ أَدْرَكْتُ كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يقُولُوا: اللهُمَّ أَعْتِقْنَا مِنَ النَّارِ وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا يُعْتَقُ مِنْهَا مَنْ دَخَلَهَا وَكَانُوا يَقُولُونَ: نَسْتَجِيرُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ "[109].

*- قِيلَ لِلْعَبَّاسِ أَنْتَ أَكْبَرُ أَوِ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي، وَأَنَا وُلِدْتُ قَبْلَهُ [110].

*- عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَمِّعٍ قَالَ: " نَزَلَ عَلَيْهِ ضَيْفٌ، فَمَا سَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ وَمَا حَالُكَ؟ حَتَّى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ "[111].هذا منعا للاحراج وقد يكذب من يسئل من أين جئت؟ أين تذهب؟ وغير ذلك من أسئلة يمل منها ذوي الأدب والمروءة.

[108] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ١٦٩)

[109] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣١٤)

[110] المجالسة وجواهر العلم المؤلف : أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المحقق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان رقم:" ٣٣٩١" الناشر : جمعية التربية الإسلامية (البحرين) ، دار ابن حزم بيروت تاريخ النشر : ١٤١٩هـ

[111] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٩١)

*- كَانَ ابْنُ سِيرِينَ إِذَا دُعِيَ إِلَى وَلِيمَةٍ أَوْ إِلَى عُرْسٍ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ فَيَقُولُ: " اسْقُونِي شَرْبَةَ سَوِيقٍ فَيُقَالُ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَنْتَ تَذْهَبُ إِلَى الْوَلِيمَةِ أَوْ إِلَى الْعُرْسِ تَشْرَبُ سَوِيقًا، قَالَ: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَحْمِلَ حَرَّ جُوعِي عَلَى طَعَامِ النَّاسِ»[112].

*- قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شَهْدَةٌ فَقَالَ: «هَلُمَّ فَكُلْ فَإِنَّ الطَّعَامَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يُقْسَمَ عَلَيْهِ»[113]

*-في حديث الاسراء والمعراج نبه شراح الحديث على أدب جم وهو الترحيب الزائر ففيه قَوْلُهُ مَرْحَبًا هُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ أَيْ صَادَفْتُ رُحْبًا بِضَمِّ الرَّاءِ أَيْ سَعَةً وَالرَّحْبُ بِالْفَتْحِ الشَّيْءُ الْوَاسِعُ وَقَدْ يَزِيدُونَ مَعَهَا أَهْلًا أَيْ وَجَدْتُ أَهْلًا فَاسْتَأْنِسْ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ تَأْنِيسِ الْقَادِمِ وَقَدْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَفِي حَدِيثِ أُمِّ هَانِئٍ مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ وَفِي قِصَّةِ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ وَفِي قِصَّةِ فَاطِمَةَ مَرْحَبًا بِابْنَتِي وَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ...[114]

*- قال الربيع دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت قوى الله ضعفك فقال لو قوى ضعفى قتلنى قلت والله ما أردت إلا الخير قال أعلم أنك لو شتمتنى لم ترد إلا الخير

وفى رواية قل قوى الله قوتك وضعف ضعفك[115]

---

[112] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٧)

[113] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٨)

[114] فتح الباري لابن حجر (١/ ١٣١)

[115] طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ١٣٥)

*- يقول سمعت الشافعى يقول أكره أن يقول أعظم الله أجرك يعنى فى المصاب لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك[116]

*- عَنِ ابْنِ سِيْرِيْنَ، قَالَ:خَرَجَ زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ يُرِيْدُ الجُمُعَةَ، فَاسْتَقْبَلَ النَّاسَ رَاجِعِيْنَ، فَدَخَلَ دَاراً، فَقِيْلَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مَنْ لاَ يَسْتَحْيِي منَ النَّاسِ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ[117]

*- قَالَ الشَّيْخُ تاج الدين بن السبكيِ : كُنْتُ يَوْمًا فِي دِهْلِيزِ دَارِنَا فِي جَمَاعَةٍ، فَمَرَّ بِنَا كَلْبٌ يَقْطُرُ مَاءً يَكَادُ يَمَسُّ ثِيَابَنَا فَنَهَرْتُهُ، وَقُلْتُ: يَا كَلْبُ يَا ابْنَ الْكَلْبِ، وَإِذَا بِالشَّيْخِ الْإِمَامِ - يَعْنِي وَالِدَهُ الشَّيْخَ تقي الدين السبكي - يَسْمَعُنَا مِنْ دَاخِلٍ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: لِمَ شَتَمْتَهُ؟ فَقُلْتُ: مَا قُلْتُ إِلَّا حَقًّا أَلَيْسَ هُوَ بِكَلْبٍ ابْنِ كَلْبٍ؟ فَقَالَ: هُوَ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّكَ أَخْرَجْتَ الْكَلَامَ فِي مَخْرَجِ الشَّتْمِ وَالْإِهَانَةِ وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ[118] .

---

[116] طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ١٣٨)

[117] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢/ ٤٣٩)

[118] الحاوي للفتاوي (١/ ٢٨٣)

الوحدانية في ضوء القرآن الكريم

قال الله الواحد الأحد ﷻ وعظم سلطانه

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الآية ٢٥٥ :البقرة) هذه سيدة آي القرآن الكريم تحدثت عن وحدانية الله وكمالاته سبحانه وتعالى .

صفة الوحدانية هي الصفة الجامعة لكل صفات الكمال فالله جل جلاله واحد في ذاته، واحد في صفاته واحد في أفعاله.وقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوحدانية ،وأنها الحق المبين وأن كل شريك أو معبود مع الله تعالى هو كذب وافتراء فلا حقيقة لها قال ﷻ (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتنبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)يونس. إذا كان شيئاً لا يعلمه الله لا في السموات ولا في الأرض إذن فهو ليس معدوماً فقط بل هو وهم لا وجود له ... لذلك لم يترك القرآن الكريم دليلاً يصلح لخطاب البشر إلا أورده على أتم الوجوه وقد دعاهم الله سبحانه وتعالى ليتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها و يحصلوها ولو إجمالاً،حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار.

ولذلك نَوَّعَ الأدلة تنويعاً عجيباً حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم التي علم الله سبحانه وتعالى أنها تتغير وتتبدل.

أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية:

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية على غاية التفنن والإبداع تلطفاً في استدعاء الناس إلى التوحيد وتأليفاً لقلوبهم ، ولفتاً لأسماعهم وأبصارهم،وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب...

فمن أساليب القرآن

١- أسلوب الخبر المجرد:

"لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ "كلمة التوحيد وهى الكلمة الطيبة والعروة الوثقى والقول السديد.أخبرنا الله بأنه لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إخبار الله تعالى من أعظم ما يقوي المؤمن ويثبته على الإيمان بوحدانية الله الواحد القهار.ومَن أصدق من الله حديثا ً؟ ومَن أصدق من الله قيلاً ؟"الله" اسم تفرّد به الحق- سبحانه فلا سمِيّ له فيه، قال الله تعالى (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥) مريم.أي هل تعرف أحداً غيره تسمَّى"الله" ؟

الله عَلَم واجب لذاته الذي تفرد به تعالى فلم يجعل لغيره شركة في لفظه كما لم يكن لأحد شركة في معناه وعليه تجرى صفاته وهو بمثابة العلم من حيث إنه يوصف ولا يوصف به ؛ لأنه اسم علم لله كأسماء الأعلام التي سمي بها غيره تعالى فإن الأعلام في الأصل وضعت للتمييز بين المسميين وهذا محال على الله وهو أيضا مستثنى من الخلاف

في أن أي المعرفتين أعرف ولذلك قال سيبويه اسم الله تعالى أعرف المعارف وروي أنه رئي في المنام وقد نال خيراً كثيراً بهذه الكلمة[١١٩] .

لفظ الجلالة (الله):ورد في القرآن الكريم(٢٥٥٧) من غير البسملة فإذا أضفنا إليها ما ورد بالبسملة فنزيد(١١٢) فيصبح العدد (٢٦٦٩) فإذا زدنا كلمة (الله) (١٤٠) فيكون العدد من غير البسملة (٢٦٩٧) وبالبسملة (٢٧٠٩) وممكن أن نزيد كلمة اللهم التي وردت خمس مرات .

قول(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)فيه خاصيتان إحداهما أن جميع حروفها جوفية ليس فيها من الحروف الشفهية حرفاً للإشارة إلى الإتيان بها من خالص جوفه وهو القلب لا من الشفتين[١٢٠].لفظ إله في كلمة الشهادة نكرة في سياق النفي فيعم بلا شك[١٢١] .

وقال سبحانه (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) البقرة. قال القشيري :و «الواحد» من لا مثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا قديم يؤانسه.لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده.أبدىّ العز أزلىّ الذات.واحد فى عز سنائه فرد فى جلال بهائه، وتر فى جبروت كبريائه، قديم فى سلطان عزّه، مجيد فى جمال ملكوته[١٢٢]. قال الخليل : أطبق جميع الخلق على أن قولنا الله

---

[١١٩] معنى لا إله إلا الله صـ١٠٥ للإمام محمد بن عبدالله بن بهادر أبو عبدالله بدر الدين الزركشي الناشر : دار الإعتصام – القاهرة ط الأولى ، ١٩٨٥ تحقيق : علي محي الدين علي القره داغي

[١٢٠] معنى لا إله إلا الله صـ ٨٢ ،٨٣

[١٢١] معنى لا إله إلا الله صـ٨٠ ،٨١

[١٢٢] لطائف الإشارات (١/ ١٤٣) بتصرف

مخصوص بالله سبحانه [123]. ورد في القرآن الكريم(٢٦٩٧) مرة بتشكيلاتها اللفظية المختلفة.

قال ﷻ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) سورة الإخلاص. وهذه السورة المباركة شاملة لأصول الصفات الإلهية ،والرد على جميع صنوف الملحدين.ثم هي مقررة لأسمى العقائد اللائقة بالله عز وجل ،ومصححة لضلالات أهل الكتاب فضلاً عن المشركين. قال الإمام الخازن مبيناً في كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن:...لأن منتهى التقديس في أن يكون واحداً من ثلاثة أمور :١- لا يكون حاصلاً ممن هو من نوعه وشبهه ودل عليه قوله " لَمْ يلِد".

٢-ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره وشبيهه ودل عليه قوله "وَلَمْ يُولَد".

٣- ولا يكون أحد في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً منه ودل عليه قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ويجمع جميع ذلك قوله :" قُلْ هُوَ اللهُ أحَد" وجملته وتفصيله هو قولك لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فهذا سر من أسرار القرآن المجيد الذي لا تتناهى أسراره ولا تنقضي عجائبه[124]

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﵁ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ.فَأَنْزَلَ اللَّهُ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ) فَالصَّمَدُ الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لأَنَّهُ لَيْسَ شَىْءٌ يُولَدُ إِلاَّ

[123] مفاتيح الغيب ١/ ١٣٧

[124] تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٤٩٦).

سَيَمُوتُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلاَّ سَيُورَثُ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَمُوتُ وَلاَ يُورَثُ (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) قَالَ " لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلاَ عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ "[١٢٥] .

لطيفة:-

-ورد لفظ أحد في القرآن الكريم (٨٥) مرة ، ومن العجيب أنها جاء منها (مرة واحدة وصفاً لله تعالى وهو قوله تعالى في سورة الإخلاص)(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وكأن هذا نوع من التأكيد لأحديَّة الله تعالى من حيث اللفظ والمعنى والعدد جميعا [١٢٦] .

٢- أسلوب الخبر المؤكد مثل التأكيد بإن واللام والقسم

قَالَ تَعَالَى (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) الصافات.

أقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته،ومناسبة هذا القسم هو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله، واتخاذهم آلهة بما أنهم- بزعمهم- بنات الله! و عظم اللَّه ﷻ أمر الملائكة عليهم وأعظم شأنهم في قلوب أُولَئِكَ الكفرة وصدقهم عندهم؛ لذلك أقسم بهم على وحدانيته[١٢٧] فالملائكة

[١٢٥] الترمذي رقم (٣٦٦٤) وصححه الحاكم وأقره الذهبي رقم (٣٩٨٧) الطبري مرسلاً ٦٩١/٢٤ قال ابن حجر: وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ أَبِي الْعَالِيَة مُرْسَلًا وَقَالَ : هَذَا أَصَحّ ، وَصَحَّحَ الْمَوْصُول اِبْن خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِم ، وَلَهُ شَاهِد مِنْ حَدِيث جَابِر عِنْد أَبِي يَعْلَى وَالطَّبَرِيّ وَالطَّبَرَانِيّ فِي الْأَوْسَط .

[١٢٦] المدخل الي التفسير الموضوعي ص١٤٠

[١٢٧] تفسير الماتريدي (٨/ ٥٤٥) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٨٢)

بريئة من عبادتهم ومن كفرهم ولا يصح زعمهم بأنهم بنات الله أو وصفهم بالأنوثة بل هم عباد مكرمون .

*- التأكيد بأسلوب القصر :

وطرق القصر متعددة فمما ذكره

النفي والاستثناء (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) طه:١٤ .

القصر بإنما (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) طه. جاءت تلك الآية بعد قصة عبادة بني اسرائيل للعجل ووقوعهم في فتنة السامرى الذي أضلهم عن التوحيد قال البقاعي: ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان، أخبرهم بالحق على وجه الحصر "إنما إلهكم" جميعاً "الله" أي الجامع لصفات الكمال؛ ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله: "الذي لا إله إلا هو" أي لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لأنه "وسع كل شيء علماً" تمييز محول عن الفاعل، أي أحاط علمه بكل شيء، فكان على كل شيء ممكن قديراً، فكان كل شيء إليه فقيراً، وهو غني عن كل شيء، وجوده يباين وجود غيره، وذاته تباين ذات غيره، وصفاته تباين صفات غيره،[١٢٨]

وقوله (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الأنعام.

والقصر بتعريف طرفي الجملة اللَّهُ رَبِّي (اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)الشورى.

[١٢٨] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ٣٣٨)

٣–أسلوب الطلب كالاستفهام التقريري أو الإنكاري

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)النمل فَهُوَ تَقْرِيرٌ لِإِثْبَاتِ أَنَّ الْخَالِقَ وَالْمُنْبِتَ وَالرَّازِقَ هُوَ اللَّهُ، لِلَّهِ تَعَالَى بِدَلِيلٍ لَا يَسَعُهُمْ إِلَّا الْإِقْرَا رُ بِهِ يَنْتِجُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ مَعَهُ[١٢٩] .

وقوله تعالى"قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ} كَمَا قَالَ "قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [الزُّمَر: ٦٤] ، وَالْمَعْنَى: لَا أَتَّخِذُ وَلِيًا إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيْ: خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق. وهو إنكار أن يُتَّخذَ غيرُ اللَّهِ ولياً لا اتخاذ الوليّ،"وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} أي يرزُق الخلق ولا يُرْزَق وتخصيصُ الطعام بالذكر لشدة الحاجة إليه أو لأنه معظمُ ما يصل إلى المرزوق من الرزق وَهُوَ الرَّزَّاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" الذَّارِيَات: ٥٦ –٥٨] [١٣٠] .

٤– شهادة الله وملائكته و أولوا العلم

قَالَ تَعَالَى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) سورة آل عمران . للعلماء في تفسير الشهادة فيه طريقان:

---

[١٢٩] التحرير والتنوير (٢٠/١٠– ١٢)

[١٣٠] تفسير أبي السعود (٣/ ١١٦)الدر المصون (٤/ ٥٥٤)تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٣)

أحدهما: أن الشهادة الإخبار، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن وحدانيته بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. . .)...وأخبر الله سبحانه وتعالى عن وحدانيته أيضا بالآيات الكونية التي وجه الأنظار إليها من خلق السماوات والأرض وما بينهما، ومن تسخير الشمس والقمر، ومن إيلاج الليل والنهار. وأخبر سبحانه عن وحدانيته بالأدلة القاطعة التي أشار إليها في كتابه العزيز، من مثل قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفونَ).وإخبار الملائكة عن وحدانيته سبحانه، بعبادتهم له سبحانه وطاعتهم المستمرة (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)، ونزولهم على الأنبياء بأخبار الوحدانية.وشهادة أولي العلم من الناس هي إخبارهم أيضا بما يستنبطونه من الأدلة العلمية الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه، وتصديقهم لما جاء به الرسل، ونطقهم بما آمنوا به ودعوتهم إليه؛ وهذه الشهادة مختصة بأهل العلم الذين قد أخلصوا في طلب الحقيقة؛ فقد قَالَ تَعَالَى عن الجهال: (مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ).

...المعنى الثاني للشهادة هو العلم. والمعنى: علم الله في علمه الأزلي، وعلم الملائكة بِفِطَرهم وبما أنشأهم عليه رب العالمين، وعَلم أهل العلم من الناس باستنباطهم وتقصيهم لأنواع الاستدلال المختلفة أنه لَا إله إلا هو.....[١٣١]

---

[١٣١] زهرة التفاسير (٣/ ١١٤٤- ١١٤٥)

.

٥-أسلوب الأمثال: منها قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج ٧٣) فهذه الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه ؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليه من طيب ونحوه فيستنقذوه منه ، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها ، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟! ...هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه ، ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله " ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ " قيل الطالب الإله الباطل؛ والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه وقيل الطالب الذباب ؛ والمطلوب الإله ؛ فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه ، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع ، فضعف العابد والمعبود والمستلب ، فمن جعل هذا إلها مع القوي العزيز فما قدره حق قدره ؛ ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه[١٣٢] .

ومن تلك الأمثال قوله تعالى(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً) الزمر:٢٩.أي هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة ونياتهم متباينة متشاجرون لشكاسة أخلاقهم وسوء طبائعهم،كل منهم يدعي أنه عبده،فيتجاذبونه لقضاء حوائجهم ومهماتهم المختلفة فهو في تحير وتوزع

[١٣٢] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ١٣٩)

قلب؛ يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب مع كون كل واحد منهم غير راضٍ بخدمته. كلما أرضى واحداً غضب الباقون،هل يستوي هذا و رجلا خالصا لرجل فرد ليس لغيره سبيل إليه فهو في راحة عن التحير وتوزع القلب فهذا الذي يخدم واحدا لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه وإذا عصاه عفا عنه؟ فأحدهما في راحة بال واطمئنان في أعلى عليين،والآخر في لوم وعناء أسفل سافلين.والسر في إبهام الفاضل والمفضول إشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور فلا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما [١٣٣].

٦- أسلوب المحاورة وهو أسلوب يأخذ بالألباب و ويوقظ العقول ويبهج القلوب ووردت محاورات في القرآن لاثبات وحدانية الله كما جاء في سورة هود محاورة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه وسيدنا هود عليه السلام مع قومه وكما وردت محاورة بعض رسل الله مع قومهم في سورة إبراهيم وغيرها، ومحاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام كما في سورة الأنعام والأنبياء والشعراء ونذكر هنا ما جاء في سورة مريم قَالَ تَعَالَى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) مريم.

٧- أسلوب القصة: وهو من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره مثل قصص الأنبياء عليهم السلام، وهذا تفصيله في مظانه من كتب قصص الأنبياء أو تفسير الآيات التي تضمنت قصصهم عليهم الصلاة السلام وكلهم أرسل لبيان توحيد الواحد القهار – سيدنا نوح ففي الزمن الأول ومع أول رسول حارب الشرك نجد الأدلة والبراهين التي أوحاها الله إليه ولله الحجة البالغة فلما بهتهم {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا

[١٣٣] الرازي :٤٣٧/١٣ ،أبو السعود ٢٥٣/٧

فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢)} [هود] وذلك لقوة حجته وبرهانه ووضح دليله وسلطانه.

ونشير إلى وصية نوح لولده قال رسول الله ﷺ " إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ وَأَنْهَاكَ عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ...."[١٣٤].

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

فقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام اشتملت على بيان دلائل وحدانية الله وبها وسيلة الإقناع التي علمها الله له لتكون لنا نورا نقتدى به قال تعالى { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) } [الشعراء]كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام، ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء، لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا

[١٣٤] مسند أحمد (١١/ ١٥١) قال محققه : إسناده صحيح،وأخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٥٤٨)

أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم، فإن التقدّم والأوّلية لا يكون برهانا على الصحة، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له، ومعنى العداوة قوله تعالى (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) ولأنّ المغرى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان، وإنما قال عَدُوٌّ لِي تصويرا للمسألة في نفسه، على معنى:أني فكرت في أمرى فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلا وبنى عليها تدبير أمره، لينظروا فيقولوا:ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه، ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه.ولو قال: فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل في باب من التعريض، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح، لأنه يتأمّل فيه، فربما قادة التأمّل إلى التقبل ...(إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ) استثناء منقطع، كأنه قال: ولكن رب العالمين (فَهُوَ يَهْدِينِ) يريد أنه حين أتمّ خلقه ونفخ فيه الروح، عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كلّ ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذى بالدم في البطن امتصاصا، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة، وإلى معرفة مكانه، ومن هداه لكيفية الارتضاع، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد[١٣٥].

---

[١٣٥] الكشاف (٣/ ٣١٨، ٣١٩)

*- الاستدلال القرآني على وحدانية الله تعالى:-

تنوعت أدلة القرآن الكريم في الاستدلال على وحدانية الله تعالى فهناك الأدلة الكونية والنفسية والعقلية...

وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ *** تَدُلّ على أنّهُ الواحِدُ

١-الأدلة الكونية :-

وهي التي يستخدم القرآن فيها الكائنات للتدليل على وجود الله ووحدانيته وهى أقوى أنواع الأدلة فكل شيء في الكون دليل على وحدانية الله الواحد الأحد. والقرآن الكريم يضع الإنسان أمام حقائق الكون مباشرة،ليوقن بنفسه أن الذي أبدع الكون ونظمه إله واحد،الله رب العالمين.(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ١٨٥: الأعراف.

وقال سبحانه(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) يونس. ومن عجائب القدرة الإلهية التنوع في خلق الكائنات الحية التي لا تحصى يقدر العلماء عدد أنواع المخلوقات الحية بأكثر من ٢,٥ مليون نوع وبعض العلماء قرر أنه ربما يكون هناك أكثر من ٢٠ مليون نوع غير معروفة ويكتشف العلماء منها سنوياً قرابة ١٥٠٠٠ نوع. قَالَ تَعَالَى :(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨)[١٣٦].من طيور وزواحف وحيوانات برية أو مائية أو برمائية، إنسية أو وحشية منها ما علمنا ومنها ما لم

[١٣٦] http://alftah.jeeran.com/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%86%D9%8A%D9%81.html

نعلمه وكلها ناطقة بتسبيحه وتمجيده وتعظيمه (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) النور. وبالتأمل في خلق الله العلي العظيم نجد أن هذه الكائنات بعضها لا يرى إلا بالمجهر مثل البكتريا والآخر كبير جداً مثل الحوت الذي قد يصل طوله إلى ٣٠متراً وأشجار الصنوبريات التي قد يصل طولها إلى أكثر من ١٠٠متر مثل شجر الخشب الأحمر. كما أن بعضها يعيش على اليابسة أو في الماء أو يطير في الهواء....[١٣٧].

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره، حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاؤهم له وابتهالهم إليه، وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته، ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم، ليعتبروا ويحذروا. ويعاقب بين الليل والنهار،

---

١٣٧ http://alftah.jeeran.com/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%86%D9%8A%D9%81.html

ويخالف بينهما بالطول والقصر. وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته. ودلائل منادية على صفاته، لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر[١٣٨].

تأملات في عظمة المخلوقات

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) ق: ٦ . نجم الشعرى اليمانية Sirius ألمع نجم في السماء ويكبر شمسنا بنحو ٨ مرات.(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)النجم :٤٩، فالشعرى أكبر من الأرض بـ ١٠ مليون مرة

أما نجم السماك الرامح Arcturus فأكبر من شمسنا بـ ٣٠ ألف مرة .. وأكبر من أرضنا بـ ٤٠ بليون مرة ..أما نجم رجل الجوزاء Rigel فهو أكبر من شمسنا بـ ٣٤٣ ألف مرة .. وأكبر من أرضنا بـ ٤٠٠ بليون مرة !! ..أما نجم بيت الجوزاء Betslgeuse فأكبر من شمسنا بـ ٢٧٤ مليون مرة .. لذا فهو أكبر من أرضنا بـ ٣٥٥ ترليون مرة !! .. (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) غافر:٥٧... أما أكبر نجم مكتشف حتى الآن هو VY Canis Majoris ويبعد عنا ٥ آلاف سنة ضوئية ويفوق الشمس حجماً بـ ٩ بليون و ٢٦١ مليون مرة !! ...ويقدر العلماء طول مجرة التبانة بـ ١٠٠،٠٠٠ سنة ضوئية أي ما يعادل

(٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ، ٠٥١، ٤٢٤ ، ٩٤٥) كم (تسعمائة وخمس وأربعين كوادرليون وأربعمائة وأربع وعشرين ترليون وإحدى وخمسين بليون ومائتين مليون كم

[١٣٨] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٤٦)

)[139] ويقدر عدد نجومها بين ٢٠٠ – ٤٠٠ بليون نجم .. وفي السماء الدنيا بلايين المجرات وكل مجرة تحتوي على بلايين النجوم !! .. والعلماء كلما طوروا مناظيرهم العملاقة اكتشفوا المزيد والكثير من المجرات العظيمة .. وحجم السماء أكبر وأعظم من أن يستوعبه العقل البشري أو يدركه الذهن الإنساني بل ولا حتى الحاسب الآلي .. ويكفي أن نذكر هنا أن متوسط قطر المجرات يساوي ٣٠،٠٠٠ سنة ضوئية .. بينما تقدر المسافة الوسطية بين كل مجرتين بـ ٣ مليون سنة ضوئية !

وعلى مستوى الكون المكتشف والمنظور (فقط) فإن أحدث تقدير علمي لعرض الكون يقدر بـ ١٥٦ بليون سنة ضوئية،هذا هو الموجود المخلوق فكيف بالموجد الخالق ؟ .. وهناك ما هو أكبر السماء والأرض الكرسي(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم وأكبر من الكرسي قال ابن

---

[139] الألف بليون (١٥صفراً) ويطلق عليه الأمريكان *كوادرليون*! فبعد المليار هناك البليون الذي يضم (١٢صفراً) ويطلق عليه الأمريكان ترليون!

– وبعد البليون هناك الالف بليون (١٥صفراً) ويطلق عليه الأمريكان كوادرليون!

– وبعد ذلك يأتي الترليون (١٨صفراً) ويطلق عليه الأمريكان كوانتيليون!

– وبعد الترليون هناك الألف ترليون (٢١صفراً) ويطلق عليه الأمريكان سيكستيليون!

– وبعد ذلك يأتي الكوادرليون (٢٤صفراً) ويطلق عليه الأمريكان سيبتليون!

– وبعد ذلك يأتي الألف كوادرليون (٢٧صفراً) ويطلق عليه الأمريكان أوكتليون!

– ثم يأتي الكوانتيليون (٣٠صفراً) ويطلق عليه الأمريكان نونيليون!

– وبعد ذلك يأتي الألف كوانتيليون (٣٣صفراً) ويطلق عليه الأمريكان ديكيليون!

– وبعده السيكستيليون (٣٦صفراً) ويطلق عليه الأمريكان اندكليون!

– ثم الألف سيكستيليون (٣٩صفراً) ويطلق عليه الأمريكان ديوديكليون!

– ويأتي بعد ذلك السيبتليون (٤٢صفراً) ويطلق عليه الأمريكان تريدكليون! هذه الأسماء توجد على عشرات المنديات على الانترنت منها

http://www.alokab.info/forums/index.php?s=

عباس رضي الله عنهما (الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى)[140] .. وقال الحبيب عليه الصلاة والسلام : (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة كل ما خطر ببالك فالله أعظم من ذلك سبحانه. عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ، قَالَ:اذْكُرُوا مِنْ عَظَمَةِ اللهِ مَا شِئْتُمْ، وَلاَ تَذْكُرُوْنَ مِنْهُ شَيْئاً إِلاَّ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَاذْكُرُوا مِنَ النَّارِ مَا شِئْتُمْ، وَلاَ تَذْكُرُوا مِنْهَا شَيْئاً إِلاَّ وَهِيَ أَشَدُّ مِنْهُ، وَاذْكُرُوا مِنَ الجَنَّةِ مَا شِئْتُمْ، وَلاَ تَذْكُرُوا مِنْهَا شَيْئاً إِلاَّ وَهِيَ أَفْضَلُ[141]

*- الأدلة النفسية :-

حيث ينتزع الدليل من داخل الإنسان نفسه ومن أعماق شعوره الداخلي.قال جل جلاله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)الروم. التفكر : طلب المعنى من الأشياء فيما يتعلق بالقلب. هذا الدليل يُعد من الأدلة النفسية حيث يُنتزع الدليل للإنسان من زوايا نفسه و أعماق شعوره الداخلى،فالآية الكريمة تُثير الجانب النفسي في الإنسان ليتأمل من داخله،وليستدل بشعوره وليتواءم مع هذه الفطرة المنقدحة في حناياه بأن هذا الكون حق،وأن وراءه حكمة وقصداً عظيماً.والآية الكريمة تستثير الوجدان النفسي،والحس الباطن ليكون هو الدليل الذي يُورث صاحبه اليقين وينفي عنه الريبة

[140] الأسماء والصفات للبيهقي ٢ / ٣٠١

[141] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٤٠٦)

والقلق. قَالَ تَعَالَى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) سورة يونس.انظروا بعد أن تنعموا بتلك الريح الطيبة واطمأننتم ، وبدأتم في اللهو والعبث ها هي المفاجأة يترككم حفظ ربكم فتنقلب الريح الطيبة إلى ريح عاصف وجاء الفزع والهول من كل جانب فأحاط بهم الموج وهنا أيقنوا الهلاك إلى من تتوجه ومن الذي تدعوه من غير الرؤوف الرحيم ترجوه هل من منجا إلا إليه هل من نجاة إلا من لدنه هل من مغيث إلا إياه هل من مجير سواه أمن يجيب المضطر إذا دعاه؟

٣- الأدلة العقلية:-

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات فكرية،كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس، ومشاعر النفس وإن كان الإدراك في الجميع راجعاً إلى العقل من الأدلة العقلية التي وردت في القرآن الكريم.

أ- الدليل البدهي:

وهو الذي يقوم على استخدام الحقائق المشهورة والبدهيات المستقرة في ابتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعاناً تاماً إن كان منصفاً، و إن كان مكابراً فلا شيء ينفع معه ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) الكهف.

والدليل االبدهي يقوم على البساطة التامة كل واحد ممكن أن يخاطب بهذا الدليل لأنه

يعتمد على بداهة العقل قال سبحانه (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) الأنعام: ١٠١.

ب . دليل التمانع:

حيث يسلم فيه بوجود المستحيل تسليماً جدلياً على سبيل الجدل فقط ثم يستدل على عدم فائدة هذا المحال على تقدير وقوعه قَالَ تَعَالَى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) الأنبياء . هذه الآية لا أبين منها في برهان التوحيد وأنه لا مزيد على برهان القرآن؛لأنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب وتميز صنع كل عن الآخر بحكم اللزوم العادي فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام التي باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد ويختل الانتظام الذي به بقاء الأنواع وترتب الآثار[١٤٢]. وهذا البرهان يسمى برهان التمانع وتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما والكل باطل وإن أريد بالفساد الخروج عما هو عليه من النظام فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب وتميز صنع كل عن الآخر بحكم اللزوم العادي فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام التي باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد ويختل الانتظام التي به بقاء الأنواع وترتب الآثار[١٤٣].

فالله تعالى واحد لا شريك له و لا ند له، فما سواه هو خالقه لا غير، ولو سلم جدلاً أن معه إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق. وبرهانه أنه لو قدر

[١٤٢] الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٤٨)

[١٤٣] مستفاد من رسالتي للعالمية الإمام القاسمي ومنهجه في التفسير

له شريك لكان مثله في كل الوجوه أو أرفع منه أو كان دونه. وكل ذلك محال. فالمفضي إليه محال قال سبحانه وتعالى (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) المؤمنون.[١٤٤]،

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهِنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ[١٤٥].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"الشعراء: ٨٩. قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[١٤٦]

****

[١٤٤] شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٣٤٧)

[١٤٥] البخاري رقم: ٦٨٧٩

[١٤٦] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٢٣)

جعل الله لكل داء دواء وداؤنا الذنوب والمعاصى ودواؤنا التوبة والاستغفار ورغبنا سبحانه في التوبة وجعل لها بابا لن يغلق في وجه من تاب وأناب حتى تطلع الشمس من مغربها وها هو القرآن الكريم يرشدنا إليها ويرغبنا فيها ويبشرنا بها فقد اهتم بالتوبة اهتماما عظيما يدل على ذلك سعة موضوعها فيه فقد ورد لفظ (التوبة) في القرآن الكريم في سبعة وثمانين موضعاً[١٤٧]، تأمل كيف تغيرت الأساليب وتعددت العبارات وتكرر الأمر بها والحديث عنها إجمالا وتفصيلا ترغيبا فيها وترهيبا من تركها وأمرا بها ومدحا لأهلها وحثا عليها،و على التعجيل بها ونهيا عن تسويفها أو تركها... إنها وصية الله لعباده المؤمنين قَالَ تَعَالَى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور:٣١) و(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ... (التحريم:٨) وهي وصية رسول الله ﷺ عن ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: "يَا أَيّهَا النّاسُ تُوبُوا إِلَىَ اللّهِ. فَإِنّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ، إِلَيْهِ مِائَةَ مَرّةٍ".

وعَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ ﷺ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[١٤٨]. فبابها مفتوح لكل من تاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: "مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ

[١٤٧] عدد مرات وروود لفظ التوبة ومشتقاتها: (تاب ١٨ ، يتوب ١٢ ، تواب ١١ ، تابوا ١٠ ، توبوا ٧ ، توبة ٦ ، يتوبون ٣ ، يتوبوا ٣ ، تبت ٣ ، تبتم ٢ ، متاب ٢ ومرة واحدة ل أتوب، يتب، تُب، تتوبا، تابا، توبتهم، التوابين،التائبون،تائبات، التوب)

[١٤٨] صحيح مسلم رقم:(٢٧٠٢)

اللّهُ عَلَيْهِ" وقالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[١٤٩].

تعريفها :

التوبة: لغة الرجوع يقال تاب وثاب وأناب وآب بمعنى رجع.

وفي مقاييس اللغة: التاء والواو والباء كلمةٌ واحدةٌ تدلّ على الرّجوع. يقال تابَ مِنْ ذنبه، أي رَجَعَ عنه يتوب إلى الله تَوبةً ومَتَاباً، فهو تائب. والتَّوْب التَّوبة.فالتائب إلى الله تعالى هو الراجع من شيء إلى شيء، راجع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة، راجع عما نهى الله عنه إلى أمره، وعن معصيته إلى طاعته، وعما يكرهه إلى ما يرضاه، من أحسن ما قيل في معناها شرعاً: هو الرجوع من البعد عن الله إلى القرب إليه سبحانه وتعالى اهـ ذكره الإيجي[١٥٠].

حكمها:-

التوبة واجبة عقلا ونقلا.عقلا؛ لأن كل عاقل يوقن بأن ما يحجبه عن كل محبوب لابد من تركه ويرجع إلى صوابه وهديه التَّوْبَةُ هِيَ بِدَايَةُ الْعَبْدِ وَنِهَايَتُهُ، وَحَاجَتُهُ إِلَيْهَا فِي النِّهَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ، كَمَا أَنَّ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا فِي الْبِدَايَةِ كَذَلِكَ، هى واجبة نقلا لما ورد من الأمر بها في القرآن والسنة فمن تركها وفرط فيها فهو آثم قَالَ تَعَالَى "وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) الحجرات ففى هذه الآية قَسَّمَ الْعِبَادَ إِلَى تَائِبٍ وَظَالِمٍ، ولا ثَالِثٌ لهما، وحكم عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ بأنه ظالم،نعم ظالم لِجَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبِعَيْبِ نَفْسِهِ وَآفَاتِ

---

[١٤٩] الحديثان رواهما مسلم " كتاب الذكر والدعاء ...باب التوبة ٢٤/١٧، ٢٥

[١٥٠] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقى (١/ ٩٠)

أَعْمَالِهِ، واتفق علماؤنا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبةٌ، وأنها واجبة على الفَوْر، سواء كانت المعصية صغيرةً أو كبيرة،و وجوبُها عند أهل السُّنة بالشرع قال سبحانه (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١) النور. وتوبوا إلى الله؛ فإنكم لا تخلون من سهوٍ وتقصير في أداء حقوق الله – تعالى – فلا تتركوا التوبة في كل حال وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَة النور وهى مَدَنِيَّةٍ، خَاطَبَ اللَّهُ بِهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ، ثُمَّ عَلَّقَ الْفَلَاحَ بِالتَّوْبَةِ وَأَتَى بِلَعَلَّ التى تفيد التَّرَجِّي، إِذَا تُبْتُمْ كُنْتُمْ عَلَى رَجَاءِ الْفَلَاحِ، فَلَا يَرْجُو الْفَلَاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ،

عَنْ طَلْقِ بنِ حَبِيْبٍ، قَالَ: إِنَّ حُقُوقَ اللهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهَا الْعِبَادُ، وَإِنَّ نِعَمَ اللهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَلَكِنِ أَصْبِحُوا تَائِبِينَ وَأَمْسُوا تَائِبِينَ "[١٥١].

*– عناية القرآن بالتوبة والتائبين:–

حث الله تعالى على التوبة والاستغفار فدعا الكفار لترك كفرهم وليوحدوا الله الواحد، ودعا المنافقين لهجر نفاقهم وإخلاص الدين لله ودعا المذنبين للرجوع إلى روضة المطيعين فلله الحمد على نعمة الإسلام ولله الحمد عدد عفوه عن خلقه وها هو القرآن الكريم يخص التوبة بالحديث بل يفرد سورة باسم التوبة أيقظت قلوب الغافلين وأزهرت قلوب المنيبين ، فتاب من تاب وفاز من رجع وأناب.

[١٥١] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٦٥)سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٦٠٢)

من صور اهتمام القرآن الكريم بالتوبة بيان فضلها وثمراتها وبيان وجوبها والدعوة للمسارعة إليها فمن ذلك:-

*- مدحه للتائبين والثناء عليهم بل جعلهم أول من مدحهم في قوله تعالى " التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ (١١٢) التوبة. التائبون أَي الراجعون عَمَّا يكرههُ الله ويسخطه إِلَى مَا يُحِبهُ ويرضاه وَعَن الْحسن فِي قَوْله تَعَالَى التائبون قَالَ تَابُوا إِلَى الله من الذُّنُوب كلهَا وَقيل تَابُوا من الشّرك وبرئوا من النِّفَاق والتائبون على ثَلَاث طَبَقَات فأدناهم التائبون من الْكفْر وأوسطهم التائبون من الْمعْصِيَة وَأَعْلَاهُمْ التائبون من الْغَفْلَة [١٥٢] لذا وصي سيدنا عمر ﷺ بمجالستهم، قَالَ عُمَرُ: «جَالِسُوا التَّوَّابِينَ؛ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً» [١٥٣]

*- ومنها حثه عليهما في كثير من الآيات بل وبعد الكثير من العبادات يقول القاسمي :ولا يخفى على الخبير، أن من سبر كثيرًا من جزئيات الطاعات، يرى أن الحق سبحانه وتعالى شَرَعَ التوبة والاستغفار في خواتيم أعمالها، فشرعها في خاتمة الحج، وقيام اللَّيل، وأَمَر تعالى رسوله بالاستغفار عقب توفِيَتِه ما عليه من تبليغ الرسالة، والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا؛ فكان التبليغ عبادة قد أكملها وأدَّاها فشرع له الاستغفار عقيبها [١٥٤].

---

[١٥٢] التذكرة في الوعظ (ص: ١٣٢)

[١٥٣] مسند أحمد (١٧/ ٣٤٤) قال محققه:حديث حسن، وقول سيدنا عمر بالزهد لهناد (٢/ ٤٥١)

[١٥٤] سر الاستغفار عقب الصلوات (ص: ٢٧)

*- ومن دلائل تلك العناية تسمية الله باسمه التواب والغفار والغفور

وكثرة تذييل الآيات البينات بتلك الأسماء الحسنى و سنفرد بيان ذلك بالتفصيل

*- ومن دلائل تلك العناية بها كثرة الآيات التي تتحدث عن فضلها وثوابها

فللتوبة فضائل كثيرة وثمراتها التى تعود على التائب عظيمة، بينها القرآن إجمالا وتفصيلاً

*- منها مغفرة الذنوب ومحو الخطايا وتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ حَتَّى يَصِيرَ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ والْمَغْفِرَة صِيَانة العَبْد عَمَّا اسْتَحَقَّه من الْعقَاب بالتجاوز عَن ذنويه والغفر: السّتْر والتغطية ،الغفور والغفار: من صِفَات الله،والغفور: كثير الْمَغْفِرَة والغفار أبلغ مِنْهُ لزِيَادَة بنائِهِ وَقيل: الْمُبَالغَة فِيهِ من جِهَة الْكَيْفِيَّة، وَفِي الْغفار من جِهَة الكمية،والغفران: يَقْتَضِي إِسْقَاط الْعقَاب ونيل الثَّوَاب، وَلَا يسْتَحقّهُ إِلَّا الْمُؤمن، وَلَا يسْتَعْمل إِلَّا فِي الْبَارِي تَعَالَى[155] قَالَ تَعَالَى " فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩)" المائدة. وها هى البشرى للجميع قال ﷻ" وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)" طه.عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ

سر الاستغفار عقب الصلوات (ص: ٢٧)

[155] وهنا أيضا وَالْعَفو يَقْتَضِي إِسْقَاط اللوم والذم وَلَا يَقْتَضِي نيل الثَّوَاب وَيسْتَعْمل فِي العَبْد أَيْضا كالتكفير حَيْثُ يُقَال: كفر عَن يَمِينه،والستر: أخص من الغفران إِذْ يجوز أَن يستر وَلَا يغْفر ،والصفح: التجاوز عَن الذَّنب

والمحو: أَعم من الْعَفو والغفران والغفران فِي الْآخِرَة فَقَط

وَالْإِحْسَان فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة. الكليات (ص: ٦٦٦، ٦٦٧)

ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ اللهُ: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي "[١٥٦]

*- ومنها البشرى للتائب بالفلاح قَالَ تَعَالَى " فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)" القصص. بل يصير حبيباً لله تعالى قال سبحانه " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)" البقرة.

*- ومنها رفع العقوبة الأخروية قَالَ تَعَالَى " إِلاَّ الَذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيم (١٦٠)" البقرة." إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)"ال عمران. دلت الآيات على استثناء التائب من هذه العقوبة العظيمة اللعنة أي الطرد من رحمة الله ومن يحرم رحمة الله ماذا ينتظر ؟ فبالتوبة ينجى الله التائب من اللعنة والعذاب وأيضا ينجو التائب مما كان عليه ولو كان النفاق قَالَ تَعَالَى " إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦)النساء.

هذا وقد تاب كثير من المنافقين بعد نزول سورة التوبة فسبحان من سبقت رحمته غضبه!

*- ومنها الفوز العظيم بدخول جنات النعيم قَالَ تَعَالَى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

[١٥٦] مسند أحمد (١٧/ ٣٤٤) قال محققه:حديث حسن-بطرقه- (١١٢٣٧) وأخرجه أبو يعلى (١٣٩٩)

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)التحريم. وإذا كانت التوبة بهذه السهولة فلا يغرنك بالله الغرور فتعصيه لأجل كرمه وتستصغر الذنب وتتعود عليه وتداوم على فعله.

*- في رحاب اسمه تعالى التواب:-

التَّوْبَة: إذا اسْتعْملت بـ (على) دلّت على معنى الْقبُول، وَاسم الْفَاعِل مِنْهُ (تواب) يسْتَعْمل فِي الله لِكَثْرَة قبُول التَّوْبَة من الْعباد وَإِذا اسْتعْملت بـ (عَن) كَانَ اسْم الْفَاعِل (تَائِبًا) وَتَابَ إِلَيْهِ: أناب[١٥٧] التَّوَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، وجَاءَ التَّوَّابُ: عَلَى وَزْنِ فَعَّالٍ، وَهُو مِنَ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي صِيغَتْ للتكثير وَهُوَ الْكَثِيرُ الْقَبُولُ لِتَوْبَةِ الْعَبْدِ، أَوِ الْكَثِيرِ الْإِعَانَةَ عَلَيْهَا. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الِاسْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مُعَرَّفًا وَمُنَكَّرًا، وَوَصَفَ بِهِ تَعَالَى نَفْسَهُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ تَعَالَى. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِهِ إِلَّا تَجَوُّزًا، وَأَجْمَعُوا أَنَّهُ لَا يُوصَفُ تَعَالَى بتائب ولا آئب وَلَا رَجَّاعٍ وَلَا مُنِيبٍ، وَفُرِّقَ بَيْنَ إِطْلَاقِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى الْعَبْدِ، وَذَلِكَ لِاخْتِلَافِ صِلَتَيْهِمَا. أَلَا تَرَى: فَتَابَ عَلَيْهِ،وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ؟

وَتَابَ مَعْنَاهُ: رَجَعَ.وَيُقَالُ: تَابَ الْعَبْدُ: إِلَى رَبِّهِ أَيْ رَجَعَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ اقْتِرَافَ الذَّنْبِ إِعْرَاضٌ عَنِ اللهِ أَيْ عَنْ طَرِيقِ دِينِهِ وَمُوجِبَاتِ رِضْوَانِهِ، وَيُقَالُ: تَابَ اللهُ عَلَى الْعَبْدِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ مِنَ اللهِ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْعَطْفِ؛ كَأَنَّ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ تنحَرِفُ عَنِ الْمُذْنِبِ بِاقْتِرَافِهِ أَسْبَابَ الْعُقُوبَةِ، فَإِذَا تَابَ عَادَتْ إِلَيْهِ، وَعَطَفَ رَبُّهُ عَلَيْهِ، وأصل التوبة:الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإنابتُه إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يَسْخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربه. وإذا وصف بها الباري تعالى

---

[١٥٧] الكليات (ص: ٣٠٨)

أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة. و أن يرزقه ذلك،ويعينه علي التوبة، ويؤوب له من غضبه عليه إلى الرضا عنه ، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه. يقول الراغب الأصفهاني : والتواب: يقال في العبد، وفي الرب، لكن العبد تائب إلى الله ﷻ والله تائب على عبده. ويقول الماتريدي: والتوبة من اللَّه تعالى تخرج على وجوه: أحدها: التوفيق وفقهم للتوبة وأكرمهم بها؛ كقوله: (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) أي: وفقهم للتوبة فتابوا.

والثاني: التوبة منه قبولها منهم، أي: يقبل منهم التوبة؛ كقوله:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

والثالث: (تَابَ عَلَيْهِمْ)، أي: تجاوز عنهم وعفا وصفح عنهم.

على هذه الوجوه الثلاثة تخرج إضافة التوبة إلى اللَّه تعالى[١٥٨].

وقال ابن القيم :" إن توبة العبد إلى ربه محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من الله سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولا إذنا وتوفيقا وإلهاما ، فتاب العبد فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإثابة، قَالَ تَعَالَى" وَعَلَى الثلاثَةِ الذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِن اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١١٨)التوبة. أخبرنا سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هي التي جعلتهم تائبين ، فكانت سببا ومقتضيا لتوبتهم ، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم ، فالعبد تواب والله تواب ، فتوبة

---

[١٥٨] الطبري (١/ ٥٤٧) الماتريدي (٥/ ٥٠٤) البيضاوي (١/ ٧٣) الراغب (١/ ١٦٢)

العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق ، وتوبة الله نوعان : إِذْن وتوفيق ، وقبول وإمداد[159] سبحانه رحمته وسعت كل شيء سمى نفسه توابا لكثرة توبته على عباده من تقرب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعا يدعونا إلى رحمته ومغفرته وجنته جل جلاله وعظم سلطانه لذا لا مجال للقنوط من رحمة الله ولا يأس من عفوه سبحانه فلنسارع للتوبة قبل فوات وقتها ، وليعلم التائب أنه سيرجع إلى ربه التواب الرحيم فالتواب من دعاه والرحيم من قبله " إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)البقرة (ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فَبَدَأَ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ. قَالَ أَبُو زَيْدٍ البسطامي : غَلِطْتُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: فِي الِابْتِدَاءِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، ظَنَنْتُ أَنِّي أُحِبُّهُ فَإِذَا هُوَ أَحَبَّنِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:" يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" المائدة:٥٤. وَظَنَنْتُ أَنِّي أَرْضَى عَنْهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ رَضِيَ عَنِّي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ"المائدة: ١١٩. وَظَنَنْتُ أَنِّي أَذْكُرُهُ فَإِذَا هُوَ يَذْكُرُنِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:" وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ". وَظَنَنْتُ أَنِّي أَتُوبُ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَابَ عَلَيَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:" ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا"[160] .

قَالَ تَعَالَى " وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)" الشورى. وقال سبحانه "أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤)المائدة.وقَالَ تَعَالَى:"أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» كل هَذَا تَرْغِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ فِي التَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى

[159] مدارج السالكين لابن القيم ١/٣١٢

[160] القرطبي (٨/ ٢٨٨) ونص كلامه في حلية الأولياء (١٠/ ٣٤)" غَلَطْتُ فِي ابْتِدَائِي فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: تَوَهَّمْتُ أَنِّي أَذْكُرُهُ وَأَعْرِفُهُ وَأُحِبُّهُ وَأَطْلُبُهُ فَلَمَّا انْتَهَيْتُ رَأَيْتُ ذِكْرَهُ سَبَقَ ذِكْرِي وَمَعْرِفَتَهُ سَبَقَتْ مَعْرِفَتِي ، وَمَحَبَّتَهُ أَقْدَمَ مِنْ مَحَبَّتِي ، وَطَلَبَهُ لِي أَوَّلًا حَتَّى طَلَبْتُهُ "

الطَّاعَةِ، وَإِطْمَاعٌ فِي عَفْوِهِ تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.جل جلاله غافر الذنب وقابل التوب ففى الآيات البينات وعد كريم من الرب الرحيم بأنه يقبل التوبة عن عباده.فيلقى التائب منهم بالقبول والمغفرة،ويتقبل ما يقدّم من صدقة... عَنْ مَيْمُوْنِ بنِ مِهْرَانَ: مَنْ أَسَاءَ سِرّاً، فَلْيَتُبْ سِرّاً، وَمَنْ أَسَاءَ عَلاَنِيَةً، فَلْيَتُبْ عَلاَنِيَةً، فَإِنَّ النَّاسَ يُعَيِّرُوْنَ وَلاَ يَغْفِرُوْنَ، وَاللهُ يَغْفِرُ وَلاَ يُعَيِّرُ[161].

وتأمل قوله " أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ..." الاستفهام تقريرى،والغرض حثهم على التوبة وحضهم عليها و "هو" ضمير فصل توكيد لاختصاصه سبحانه بقبول التوبة،ومنح العفو والغفران..وليس ذلك لغير الله.. ولعل الحكمة في تعدية الفعل «يقبل» بحرف الجرّ "عن" أن التوبة التي يقبلها الله تضع عنهم ما حمّلوا به من أوزار و ذنوب، فكان فى قبول التوبة منهم رفع لهذه الآثام عنهم، ولهذا ضمن الفعل «يقبل» معنى الفعل يضع، أو يسقط؛ لأن التوبة لا تكون إلا عن ذنب وقع، فقوله تعالى:" أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ" يعنى ألم يعلموا أن الله يضع الذنوب والآثام عن عباده. ويرفعها عن كواهلهم؟[162].

---

[161] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥/ ٧٥)

[162] التفسير القرآني للقرآن (٨٨٩/٦ ، ٨٩٠)

*–معنى تبديل السيئات حسنات:–

علمنا من ثمرات التوبة وفضلها أن الله يغفر ذنوب التائب ويكفرها ولكن في قوله (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)الفرقان:٧٠.

فيه تبديلها حسنات فما معنى ذلك التبديل ؟

قال علماؤنا رضى الله عنهم: وقوله: (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ):هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: يوفقهم اللَّه إذا تابوا وندموا على ما فعلوا من السيئات في الدنيا؛ حتى يعملوا مكان كل سيئة عملوها حسنة؛ فذلك معنى تبديل اللَّه سيئاتهم حسنات، أي: يوفقهم على ذلك. و هو قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ: إِنَّ التَّبْدِيلَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، فَيُبَدِّلُ اللَّهُ تَعَالَى قَبَائِحَ أَعْمَالِهِمْ فِي الشِّرْكِ بِمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ فِي الْإِسْلَامِ فَيُبَدِّلُهُمْ بِالشِّرْكِ إِيمَانًا، وَبِقَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ، وَبِالزِّنَا عِفَّةً وَإِحْصَانًا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يُبَشِّرُهُمْ بِأَنَّهُ يُوَفِّقُهُمْ لِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَيَسْتَوْجِبُوا بِهَا الثَّوَابَ.فالتبديل على هذا هو تغيير ما كان في النفس من أدران السيئات، وإحلال طيبات الأعمال والنيات محلها.

والثاني :قَالَ قَوْمٌ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْحُو السَّيِّئَةَ عَنِ الْعَبْدِ وَيُثْبِتُ لَهُ بَدَلَهَا الْحَسَنَةَ بِحُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَمَكْحُولٍ.

وقال الشيخ صدر الدين القنوى : (الطاعات كلها مطهرات) فتارة بطريق المحو المشار اليه بقوله تعالى (إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ) وبقوله عليه السلام (اتبع الحسنة تمحها) وتارة بطريق التبديل المشار اليه بقوله (إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ) إلخ فالمحو المذكور عبارة عن

حقيقة العفو والتبديل من مقام المغفرة وان تنبهت لما أشرت إليه عرفت الفرق بين العفو والمغفرة

قال أبو جعفر الطبري : وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويل من تأوّله: فأولئك يبدل الله سيئاتهم: أعمالهم في الشرك حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى.وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القُبح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إن فعل ذلك كذلك أن يصير شرك الكافر الذي كان شركا في الكفر بعينه إيمانا يوم القيامة بالإسلام ومعاصيه كلها بأعيانها طاعة، وذلك ما لا يقوله ذو حجا. قال ابن القيم: وقال بعض المفسرين فى هذه الآية: يعطيهم بالندم على كل سيئة أساؤوها حسنة، وعلى هذا فقد زال بحمد الله الإشكال، واتضح الصواب، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة[١٦٣]. أما ما رواه مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ

[١٦٣] تفسير الماتريدي (٨/ ٤٥)تفسير ابن عطية (٤/ ٢٢١) تفسير الرازي (٢٤/ ٤٨٥)

طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص: ٢٤٥) روح البيان (٦/ ٢٤٧، ٢٤٨) زهرة التفاسير (١٠/ ٥٣٢٠)

والحديث رواه مسلم (٣/٤٧) رقم:١٩٠)

أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا " فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ،".

فهذا بعد دخوله النار وخروجه منها كما يدل عليه ظاهر الحديث.نعوذ بالله من الخذلان .

*- دعوة القرآن للمسارعة والتعجيل بالتوبة قبل فوات الأوان:-

قال ﷻ"وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)آل عمران. وقال سبحانه(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) الأنعام.(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي: لم يأخذهم في أول ما وقعوا في المعصية ولكن أمهلهم إلى وقت وجعل لهم المخرج من ذلك بالتوبة وقوله (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فَقَوْلُهُ تاب إِشَارَةٌ إِلَى النَّدَمِ عَلَى الْمَاضِي وَقَوْلُهُ وَأَصْلَحَ إِشَارَةٌ إِلَى كَوْنِهِ آتِيًا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ. فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَهُوَ غَفُورٌ بِسَبَبِ إِزَالَةِ الْعِقَابِ، رَحِيمٌ بِسَبَبِ إِيصَالِ الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ

النهاية في الرحمة.أي: كل من عمل سوءًا بجهالة ثم تاب من بعد ذلك وأصلح أنه يغفر له ما كان منه[164].

ومما يبعث على التوبة وترك الإصرار: الخوف والرجاء لأن الله نهاه عما يهوى قلبه،وتشتهيه نفسه" وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) الرحمن. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى (٤١)النازعات فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه مما كره ربه ولأن التقوى أساسها الخوف فكان جزاء المتقين الأمن يوم الفزع الأكبر ووعدهم الأمن عوضا عن مما أخافوا أنفسهم به من عقابه،فقال سبحانه:" ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ"الحجر:٤٦" إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ"الدخان:٥١ وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: " وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ ، وَلا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[165] فإذا علم العبد ما عند الله من الرحمة رجاه، وإذا علم ما عنده من العقوبة اتقاه وترك المعاصى لا يدري متى يأتيه أجله؟ متى تنقطع أنفاسه؟ فيبادر بالتوبة كى يطيل مدة الصلاح في حياته كي يسعد بعفو الله في الدنيا، وبجنته في الآخرة.

وليعلم العبد أن للتوبة وقتا إذا مر لن تقبل أما المستهتر المسوف المغتر برحمة الله يخشى عليه أن يصبح مصرا على المعصية فيأتيه الموت بغتة غافلا عن التوبة قَالَ تَعَالَى (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ

---

[164] تفسير الماتريدي (٤/ ٩٥) تفسير الرازي (١٣/ ٧)

[165] قال العراقي أخرجه ابْن حبَان فِي صَحِيحه، وَالْبَيْهَقِيّ فِي الشّعب من حَدِيث أبي هُرَيْرَة، وَرَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي الزّهْد وَابْن أبي الدُّنْيَا فِي كتاب الْخَائِفِينَ من رِوَايَة الْحسن مُرْسلا.

عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧)." ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ " أي عَنْ قُرْبِ عَهْدٍ بِالْخَطِيئَةِ بِأَنْ يتندَّمَ عَلَيْهَا وَيَمْحُوَ أَثَرَهَا بِحَسَنَةٍ يُرْدِفُهَا بِهَا قَبْلَ أَنْ يَتَرَاكَمَ الرَّيْنُ عَلَى الْقَلْبِ فَلَا يَقْبَلُ الْمَحْوَ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ "أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا"[١٦٦] عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْعُبَّادِ لِابْنِهِ:" يَا بُنَيَّ، لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ". ومن أخرها حتى الغرغرة فلن تقبل منه لأنه عاين ما يلجئه لها قال سبحانه"وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٨) النساء. ففي الآية المباركة تحذير من التسويف وتأخير التوبة.قيل المراد بالذين يعملون السوء عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار.[١٦٧]

وَمَنْ تَرَكَ الْمُبَادَرَةَ إِلَى التَّوْبَةِ بِالتَّسْوِيفِ كَانَ بَيْنَ خَطَرَيْنِ عَظِيمَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ تَتَرَاكَمَ الظُّلْمَةُ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الْمَعَاصِي حَتَّى يَصِيرَ رَيْنًا وَطَبْعًا فَلَا يَقْبَلُ الْمَحْوَ.

الثَّانِي أَنْ يُعَاجِلَهُ الْمَرَضُ أَوِ الْمَوْتُ فَلَا يَجِدُ مُهْلَةً لِلِاشْتِغَالِ بالمحو[١٦٨] الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَشَاهَدَ أَهْوَالَهُ فَإِنَّ تَوْبَتَهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ،...وكذا قَوْلُهُ تَعالَى" فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا "غَافِرٍ: ٨٥. و قَالَ عن فِرْعَوْنَ" حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠) آلْآنَ وَقَدْ

---

[١٦٦] مسند أحمد (٣٦/ ٣١٣) قال محققه:حديث حسن

[١٦٧] تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٦٥)

[١٦٨] إحياء علوم الدين (٤/ ١٢-٣٦)

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(٩١) "يُونُسَ. فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّه تَوْبَتَهُ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ الْعَذَابِ، وَلَوْ أَنَّهُ أَتَى بِذَلِكَ الْإِيمَانِ قَبْلَ تِلْكَ السَّاعَةِ بِلَحْظَةٍ لَكَانَ مَقْبُولًا، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)[١٦٩]. قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ لَا تُؤَخِّرِ التَّوْبَةَ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً»[١٧٠]

*- شروطها :-

على العبد أن يحاسب نفسه أولا بأول فإذا فعل ذلك رأى نفسه مقصرا فيعجل بالتوبة وكلما حاسب نفسه عد نفسه من المقصرين ولو كان من العباد المجتهدين فهذا أبو جَعْفَرٍ مُحَمَّد بن على بن الحسين كَانَ يَقُولُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ: «أَمَرْتني فَلَمْ أَأْتَمِرْ، وَزَجَرْتني فَلَمْ أَزْدَجِرْ، هَذَا عَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَلَا أَعْتَذِرُ»نعم لا عذر للعبد ولكن مغفرة الله تسع من رجع إليه و وقف بين يديه تائبا مستغفرا نحاسب أنفسنا وننظر في الذنوب ماذا فعلت بنا وماذا أصابنا بسببها فَمَعْرِفَةُ عِظَمِ الذُّنُوبِ وَكَوْنِهَا حِجَابًا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ كُلِّ مَحْبُوبٍ، ومعرفة أضرارها تَجعل الْقَلْب يتأ لم بِسَبَبِ فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، و يحزن و يندم عَلَى ما فعْلِ فيترْك الذَّنْبِ ويعزْم عَلَى تَرْكِ الذَّنْبِ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ، بهذه الطريقة يكون العبد تائبا فالندم وترك الذنب والعزم على عدم الرجوع هو التوبة، علينا أن نتضرع إلي الله وأن نلجأ إليه أن يُفض علينا من بركاته ورحماته أن يوفقنا للتوبة. ويطلب لكل معصية منها

[١٦٩] تفسير الرازي ١٠/ ٨ والحديث رواه أحمد ١٣٢/٢ و ١٥٣/٢ و الترمذي ٥٤٧/٥ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "هذا حديثٌ عالٍ، صالحُ الإسناد" (١٦٠/٥)

[١٧٠] الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٢٧)

حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً كما قال تعالى" إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ "هود:١١٤. فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه...فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات. قال تعالى"وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) الفرقان ٧١. أى: ومن تاب عن المعاصي تركا تاما، وداوم على العمل الصالح ليستدرك ما فاته منه، فإنه في هذه الحالة يكون قد تاب ورجع إلى الله- تعالى- رجوعا صحيحا، مقبولا منه- سبحانه- بحيث يترتب عليه محو العقاب وإثبات الثواب. فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية[١٧١].

التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كانتِ المعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتعلَّقُ بحق آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها: أَنْ يُقلِعَ عَنِ المعصِيَةِ. فعلى العبد ترك الذنب في الحال فَتَسْتَحِيلُ التَّوْبَةُ مَعَ مُبَاشَرَةِ الذَّنْبِ. فإن كانت المعصية بفعل ما حرمه الله ترك ذلك الفعل المحرم، وإن كانت بترك واجب من الواجبات التى أمره الله بها أسرع بفعلها في الحال إن كان مما يمكن قضاؤه،أو فعل ما يجب فعله الآن ولا يتكاسل فيقع في ذنب آخر.

---

[١٧١] التفسير الوسيط لطنطاوي (١٠/ ٢٢١)في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٨٠)

والثَّانِي: الندم على ما عمل من المخالفات فعلى العبد أَنْ يَنْدَمَ عَلَى ما فِعْلِ ذنوب ومعاصي . التَّوْبَةُ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالندم والحزن على ما فعل، فمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى المعِصِيَةِ. فهذَا دَلِيلٌ عَلَى رِضَاهُ بِها، وَإِصْرَارِهِ عَلَيْها، وَفِي الْمُسْنَدِ " النَّدَمُ تَوْبَةٌ "[١٧٢].تَوَجُّعُ الْقَلْبِ وَعَلَامَتُهُ طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فَأَ لَمُ النَّدَمِ كُلَّمَا كَانَ أَشَدَّ كَانَ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ بِهِ أَرْجَى فَعَلَامَةُ صِحَّةِ النَّدَمِ رِقَّةُ القلب وغزارة الدمع ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير يقول الغزالى :فلا تَظُنَّ أَنَّهَا تَذُمُّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ ذَكَرَ اللَّهَ بَلْ تَذُمُّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ مِنْ غَفْلَةِ قَلْبِهِ لا من حركة لسانه فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد[١٧٣] .

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ:" إِنِّي لَأَعْرِفُ الذَّنْبَ الَّذِي حُمِلَ عَلَيَّ بِهِ الدَّيْنُ مَا هُوَ، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً: يَا مُفْلِسُ " فَحَدَّثَ بِهِ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ، فَقَالَ:قَلَّتْ ذُنُوبُهُمْ فَعَرَفُوا مِنْ أَيْنَ يُؤْتَوْنَ، وَكَثُرَتْ ذُنُوبِي وَذُنُوبُكَ فَلَيْسَ نَدْرِي مِنْ أَيْنَ نُؤْتَى[١٧٤]

وقال أبو نصر السراج: سُئل سهل بن عبد الله عن التوبة فقال: أن لا تنسى ذنبك وسئل الجنيد : عن التوبة فقال: أن تنسى ذنبك.قال أبو نصر السراج: أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرضين تارة لهم وتارة عليهم؛فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين لا

---

[١٧٢] مسند أحمد (٦/ ٣٧) قال محققه:صحيح، وهذا إسناد حسن.

[١٧٣] إحياء علوم الدين (٤/ ٤٩)

[١٧٤] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٧١)

يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله ودوام ذكره.قال وهو مثل ما سئل رُويم عن التوبة فقال:التوبة من التوبة.

والثَّالِثُ: أَنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْه المعصية أَبَدًا. وعلى التائب أن يكون صادقاً في توبته لا يعود إلى الذنب ولو نشر بالمناشير. قَالَ قَتَادَةُ: (تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) الصَّادِقَةُ النَّاصِحَةُ. أي لا رجوع إلى المعصية أو الذنب بعدها كي لا يعد كاذبا فيها . قال يحي بن معاذ:ذلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري:لأن الفعل القبيح من العا لم أقبح من غيره.فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المعْصِيةُ تَتَعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقّ صَاحِبِها،قال الثورى :لأن تلقى الله بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد.فالله يسامح والعبد يطلب حقه ولا يتركه أبدا فليأخذه في الدنيا قبل أن يأخذه حسنات غالية يوم القيامة.

و أول منزلة من التوبة إرضاء الخصوم بما أمكن فَإِنْ كَانَتْ تلك الحقوق مالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. و إن لم يستطع فعليه العزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان والرجوع إلى الله بصدق الابتهال والدعاء لهم. والحاصل أن النطق بالاستغفار وإن خلا عن حل عقد الإصرار من أوائل الدرجات وليس يخلو عن الفائدة أصلاً فلا ينبغي أن

يظن أن وجوده كعدمه ، وقال النووي ﷺ: فيه أن الذنوب وإن تكررت مئة مرة بل ألفاً وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الكل مرة واحدة صحت توبته [١٧٥].

*- التَّوْبَةُ النَّصُوحُ:-

قَالَ تَعَالَى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

التَّحْرِيم: ٨. وَمَعْنَى النَّصُوحِ الْخَالِصُ لِلَّهِ تَعَالَى خَالِيًا عَنِ الشَّوَائِبِ. سُئِلَ عُمَرُ عَنِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، فَقَالَ: " التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: أَنْ يَتُوبَ الرَّجُلُ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ ، ثُمَّ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا "[١٧٦] وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنِ التَّوْبَةِ النصوح فقال: ندم بالقلب ، وَاسْتِغْفَارٌ بِاللِّسَانِ ، وَتَرْكٌ بِالْجَوَارِحِ ، وَإِضْمَارٌ أَنْ لا يَعُودَ.وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ تُكَفِّرُ كُلَّ سَيِّئَةٍ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ.[١٧٧]وكان مُحَمَّد بْن سُوقَة كَثِيرًا ما يَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وأَسْأَلُهُ تَوْبَةً نَصُوحًا.

*- شروط التوبة النصوح:-

واعلم أن حقيقة كل ذنب عشرة أعمال لا يكون العبد توّاباً يحبه الله تعالى ولا تكون توبته نصوحاً التي شرطها الله تعالى وفسرتها النبوّة إلا أن يحكم العبد عشر توبات من كل ذنب أولها ترك العود إلى فعل الذنب ثم يتوب من القول به ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب ثم التوبة من السعي في مثله ثم التوبة من النظر إليه ثم التوبة من الاستماع

---

[١٧٥] الرسالة القشيرية (١/ ٢٠٧ - ٢١١)

[١٧٦] الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٥٤)

[١٧٧] التبصرة لابن الجوزي (١/ ٣٦٩)

إلى القائلين به ثم التوبة من الهمة ثم التوبة من التقصير في حق التوبة ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجه الله تعالى خالصاً بجميع ما تركه لأجله ثم التوبة من النظر إلى التوبة والسكون إليها والإدلال بها ثم يشهد بعد ذلك تقصيره عن القيام بحق الربوبية لعظيم ما يشهد بالمزيد من الإشراف على التوحيد من كبير جلال الله تعالى وعظم كبريائه فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته ويكون استغفاره لما ضعف قلبه ونقص همّه عن معاينة مشاهدة لعلوّ مقامه ودوام فريدة وإعلامه ولا نهاية لتوبة العارف ولا لغاية وصفه لما هو عليه عاكف ولا وصف محتمل ذكر دقيق بلائه ولا يكبر عن التوبة نبي فمن دونه ولكل مقام توبة ولكل حال من مقام توبة ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة[178].

*- تيسير الله تعالى توبة هذه الأمة :-

وقد سهل الله لهذه الأمة التوبة، فقد كانت توبة من كان قبلنا كانت بقتل أنفسهم، من صور التوبة "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) البقرة.قال سعيد بن جبير ومجاهد: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحن رجل على رجل قريب ولا بعيد، حتى ألوى -أشار- موسى بثوبه،فطرحوا ما بأيديهم، فتكشف عن سبعين ألف قتيل[179].

[178] قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (١/ ٣٢١)

[179] تفسير الطبري (٢/ ٧٣)

*–وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والند:–

قال عبد الله بن مسعود ﷺ:كانت بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدهم ذنبًا أصبح قد كُتِب كفارة ذلك الذنب على بابه. وإذا أصاب البولُ شيئًا منه، قَرَضه بالمقراض. فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا! فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم، جعل الله الماءَ لكم طهورًا وقال: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)آل عمران ، وقال:" وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً (١١٠) النساء".

كان ابن مسعود من علماء الصحابة وكان يعلم الناس الخير فينما هو يتحدث عن الاصر الذي كان على من قبلنا ورفعه الله عنا مثل

فإذا برجل لا يقتنع بتلك النعمة ويقول إن كان لهم المن والسلوى وكذا وكذا فقال له سيدنا ابن مسعود قد آتانا الله خيرا عظيما إنظر الى طريقة توبتنهم الشاقةو العسيرة وأنظر إلى تيسير الله لنا ورفعه الحرج عنا وإرادتها الخير لنا فعن ابن عباس قوله:"ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا"، قال: أخبر الله عبادَه بحلمه وعفوه وكرمه، وسعةِ رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا، ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا، قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: دَاءُ الْبَدَنِ الذُّنُوبُ، وَدَوَاؤُهَا الِاسْتِغْفَارُ، وَشِفَاؤُهَا أَنْ لَا تَعُودَ فِي الذَّنْبِ.

ومن الممكن أن نجمع بين قول ابن مسعود ﷺ بأن نذكر الآيتين ونزيد على ذلك بصلاة ركعتين فعَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللهُ بِمَا شَاءَ مِنْهُ، وَإِذَا حَدَّثَنِي عَنْهُ غَيْرِي اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ حَدَّثَنِي – وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ – أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، قَالَ مِسْعَرٌ: وَيُصَلِّي، وَقَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ ﷻ إِلَّا غُفِرَ لَهُ "

*– عَنْ عَلْقمة وَالْأَسْوَدِ، قَالَا: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَآيَتَيْنِ مَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَرَأَهُمَا، فَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ ﷻ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ" ، وَقَوْلُهُ: "وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا"[١٨٠].

المشهور عند أهل السنة أن الذنوب كلها تغفر بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء الله ولو مات على غير توبة، لكن حقوق الآدميين إذا تاب صاحبها من العود إلى شيء من ذلك تنفعه التوبة من العود،

وأما خصوص ما وقع منه فلا بد له من رده لصاحبه أو محاللته منه.بيد أن في سعة فضل الله ما يمكن أن يعرض صاحب الحق عن حقه ولا يعذب العاصي بذلك، يَقُولُ الْحَسَنَ

---

[١٨٠] التفسير من سنن سعيد بن منصور (٣/ ١٠٩١) والطبراني في "الكبير" (٩ / ٢٤١ رقم ٩٠٣٥) . فضائل القرآن للإمام أَبُي العَبَّاسِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ المسْتَغْفِرِيُّ رقم"١١٥٩ ، ٧٦٦/٢ المحقق: أحمد بن فارس السلوم الناشر: دار ابن حزم الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م

«أَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ فِي بُيُوتِكُمْ، وَعَلَى مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ، أَيْنَمَا كُنْتُمْ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْرُونَ مَتَى تنزِلُ الْمَغْفِرَةُ»[١٨١]

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: لَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ: لِتَائِبٍ، أَوْ رَجُلٍ يَعْمَلُ فِي الدَّرَجَاتِ،

*-درجات التائبين:-

يقال:

التوبة صفة الْمُؤْمِنِينَ قَالَ اللَّه تعالي: "وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ"النور: ٣١.

والإنابة صفة الأولياء والمقربين قَالَ اللَّه تعالي: "وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ"ق: ٣٣.

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين قَالَ اللَّه تعالي: "نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"ص: ٣٠.[١٨٢]

التَّوْبَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ النَّاسِ، فَعَبْدُكَ يَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرْتَهُ بِفِعْلِهِ أَوْ فِعْلِ مَا أَمَرْتَهُ بِتَرْكِهِ، وَصَدِيقُكَ يَتُوبُ إِلَيْكَ وَيَعْتَذِرُ إِذَا هُوَ قَصَّرَ فِي عَمَلٍ لَكَ فِيهِ فَائِدَةٌ عَمَّا فِي إِمْكَانِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ، وَوَلَدُكَ يَتُوبُ إِذَا قَصَّرَ فِي أَدَبٍ مِنَ الْآدَابِ الَّتِي تُرْشِدُهُ إِلَيْهَا؛ لِيَكُونَ فِي نَفْسِهِ عَزِيزًا كَرِيمًا، وَكَذَلِكَ تَخْتَلِفُ تَوْبَاتُ التَّائِبِينَ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - بِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَفَهْمِ أَسْرَارِ شَرِيعَتِهِ، فَعَامَّةُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَعْرِفُونَ مِنْ مُوجِبَاتِ سُخْطِ اللهِ - تَعَالَى - وَأَسْبَابِ عُقُوبَتِهِ إِلَّا الْمَعَاصِيَ الَّتِي شَدَّدَتِ الشَّرِيعَةُ فِي

---

[١٨١] التوبة لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٥)

[١٨٢] الرسالة القشيرية (١/ ٢١١)

النَّهْيِ عَنْهَا، وَإِذَا تَابُوا مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ فَإِنَّمَا يَتُوبُونَ مِنْهَا، وَخَوَاصُّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْثَةً فِي النَّفْسِ تَبْعُدُ بِهَا عَنِ الْكَمَالِ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ أَثَرًا فِيهَا يُقَرِّبُهَا مِنَ اللهِ وَصِفَاتِهِ، فَالتَّقْصِيرُ فِي الصَّالِحَاتِ يُعَدُّ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي تَهْبِطُ بِالنَّفْسِ وَتُبْعِدُهَا عَنِ اللهِ – تَعَالَى –، فَهِيَ إِذَا قَصَّرَتْ فِيهَا تَتُوبُ، وَإِذَا شَمَّرَتْ لَا تَأْمَنُ النَّقَائِصَ وَالْعُيُوبَ، وَيَخْتَلِفُ اتِّهَامُ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِاخْتِلَافِ مَعْرِفَتِهِمْ بِصِفَاتِ النَّفْسِ، وَمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْآفَاتِ فِي سَيْرِهَا، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِكَمَالِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَمَعْنَى الْقُرْبِ مِنْهُ وَاسْتِحْقَاقِ رِضْوَانِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ:(حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ) وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ مَعْنَى التَّوْبَةِ الَّتِي طَلَبَهَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ – عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ–(وَتُبْ عَلَيْنَا) أَيْ وَفِّقْنَا لِلتَّوْبَةِ لِنَتُوبَ أَوِ الْمَعْنَى: اقْبَلْ تَوْبَتنا...(إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) أَيْ إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْكَثِيرُ التَّوْبِ عَلَى عِبَادِكَ – وَإِنْ كَثُرَ تَحَوُّلُهُمْ عَنْ سَبِيلِكَ – بِتَوْفِيقِهِمْ لِلتَّوْبَةِ إِلَيْكَ وَقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ مِنْهُمْ، الرَّحِيمُ بِالتَّائِبِينَ[١٨٣].

قال ابن عطاء : التوبة توبتان توبة الإنابة وتوبة الاستجابة فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفا من عقوبته وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه.هكذا حال العبد مع ربه فى جميع أعماله، فهو يعلم أنه لا يوفى مقام العبودية حقه،فهو أبداً يستغفر الله عقيب كل عمل وكان النبى ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثاً،وقال تعالى:" وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(١٨)"الذاريات.

---

[١٨٣] تفسير المنار (١/ ٣٨٨) باختصار

قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. وقال تعالى:"ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٩٩)" البقرة. فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة، وشرع للمتوضيء أن يقول بعد وضوئه: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المتَطَهِّرِين"، فهذه توبة بعد الوضوء، وتوبة بعد الحج، وتوبة بعد الصلاة وتوبة بعد قيام الليل.

فصاحب هذا المقام مضطر إلى التوبة والاستغفار كما تبين، فهو لا يزال مستغفراً تائباً، وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره[١٨٤] .

*- التوبة عامة من كل الذنوب صغيرها وكبيرها:-

وليست التوبة واجبة لمن ارتكب الكبائر فحسب بل من كل الذنوب لكل المؤمنين. والكل مأمور بالتوبة، المطيع والعاصى بل المؤمن والكافر والمنافق كما تدل عليه الآيات البينات روى التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١٨٥] . بل التوبة لصفوة خلقه للأنبياء والمرسلين فال تعالى" فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) هود. عن أبي هريرة ﷺ، قال: لم أرَ أحداً أكثرَ أنْ يقولَ: أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه من رسول الله ﷺ[١٨٦] . فهذا خير الخلق المعصوم أخوفنا لربه الذي غفر له ما تقدم من ذنبه أكثرنا

[١٨٤] طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص: ٢١٥) الدار السلفية ط ١٣٩٤.هـ

[١٨٥] سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط (٥/ ٣٢١) وقال محققه :حسن إن شاء الله، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٢٧٢)هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ " قال الذهبي :علي بن مسعدة لين. وقال ابن حجر في بلوغ المرام من أدلة الأحكام (ص: ٥٤٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَسَنَدُهُ قَوِيٌّ.

[١٨٦] السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٧١)، عمل اليوم والليلة رقم (٤٥٤)

استغفارا لننظر إلى خير الخلق من النبيين والمرسلين نجدهم يسارعون في الخيرات ويلازمون التوبة ويحضون عليها.هذا سيدنا آدم لم يكن لسيدنا آدم عزم على المعصية بل نسي وأكل من الشجرة فسارع إلى التوبة والندم على ما فعل.

قَالَ تَعَالَى "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧)البقرة.وكذا كليم الله موسى عليه السلام" قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(١٤٣)الأعراف.

وداود و سليمان عليهما السلام،ورفع اله قدر وأعلى شأنهم ولم يأنفوا من التوبة فهى شعار المقثربين من الأنبياء والمرسلين ومن الأولياء والصالحين، ودعا رسل الله قومهم إلى التوبة والاستغفار.

هذا هود عليه السلام قال تعالى " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ(٥٢)"هود.و هذا صالح عليه السلام قال تعالى " فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ(٦١)" هود.و شعيب عليه السلام قال تعالى "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)" هود.

*-الفرق بين التوبة و الاستغفار :-

عند مدارستنا لموضوع التوبة في القرآن الكريم وجدنا أنها تلازم الاستغفار تلازماً لا ينفك أحدهما عن الآخر وكلاهما يكمل الآخر. _التوبة هي: الندم على ما فرط في الماضي، والعزم على الامتناع منه في المستقبل، والاستغفار: طلب الغفران لما صدر منه، ولا يجب فيه العزم في المستقبل.وقال أبو هلال العسكري: الفرق بين الاستغفار والتوبة: أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء، والتوبة، أو غيرهما من الطاعة، والتوبة: الندم على الخطيئة، مع العزم على ترك المعاودة، فلا يجوز الاستغفار مع الإصرار؛الاستغفار يكون

عن ذنبٍ مضى، والتوبة لما يستقبل، فالاستغفار مقدمة للتوبة، كما في قوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ قال ابن القيم: فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.و قد نبَّه الشيخُ شمس الدين الجَزَرِيّ على الفرق بين التوبة والاستغفار، بأنَّ التوبةَ لا تكون إلَّا لنفسه، بخلاف الاستغفار، فإنه يكونُ لنفسه ولغيره. وبأنَّ التوبةَ: هي الندمُ على ما فَرَطَ منه في الماضي، والعزمُ على الامتناع عنه في المستقبل. والاستغفارَ: طلبُ الغفران لِمَا صَدَرَ منه، ولا يَجِبُ فيه العزمُ في المستقبل[١٨٧].

وَقَالَ ذُوْ النُّوْنِ المِصْرِيُّ:الاسْتِغْفَارُ جَامِعٌ لِمَعَانٍ، أَوَّلُهُمَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، الثَّانِي: العَزْمُ عَلَى التَّرْكِ، وَالثَّالِثُ: أَدَاءُ مَا ضَيَّعْتَ مِنْ فَرْضٍ للهِ، الرَّابِعُ: رَدُّ المظَالِمِ فِي الأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ وَالمصَالَحَةُ عَلَيْهَا، الخَامِسُ: إِذَابَةُ كُلِّ لَحْمٍ وَدَمٍ نَبَتَ عَلَى الحَرَامِ، السَّادِسُ: إِذَاقَةُ أَلَمِ الطَّاعَةِ كَمَا وَجَدْتَ حَلاَوَةَ المعْصِيَةِ.[١٨٨]

وقد حثنا الله في كتابه على الاستغفار ومدح المستغفرين ورغبهم فيه بذكر فضله تعالى لمن استغفر ربه تعالى " وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)"آل عمران " وقال سبحانه" وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)"البقرة.وبين أنه أمان لهم من وقوع العذاب"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

---

[١٨٧] فيض الباري على صحيح البخاري (٦/ ٢١٨)

[١٨٨] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/ ٥٣٥)

الأنفال . قَالَ قَتَادَةُ وَالسَّدِّيُّ: وما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أَيْ لَوِ اسْتَغْفَرُوا لَمْ يُعَذَّبُوا، فَكَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ اسْتِدْعَاءَ الِاسْتِغْفَارِ مِنْهُمْ. أَيْ لَوِ اشْتَغَلُوا بِالِاسْتِغْفَارِ لَمَا عَذَّبَهُمُ اللَّه...دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ أَمَانٌ وَسَلَامَةٌ مِنَ لْعَذَابِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ نَبِيُّ اللَّه وَالِاسْتِغْفَارُ، أَمَّا النَّبِيُّ فَقَدْ مَضَى، وَأَمَّا الِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[١٨٩] .

*- تتمة عن فضل الاستغفار :-

الاستغفار سبب لنزول الخيرات قال تعالى " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) هود وقال سبحانه "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا" نوح: ١٠-١٢. وقد ذكر البخاري رحمه الله في" كتاب (الدعوات – باب أفضل الاستغفار) هذه الآية. قال ابن حجر: " وَكَأَنَّ الْمُصَنِّفَ لَمَّحَ بِذِكْرِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى أَثَرِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ رَجُلًا شَكَى إِلَيْهِ الْجَدْبَ فَقَالَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَشَكَى إِلَيْهِ آخَرُ الْفَقْرَ فَقَالَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَشَكَى إِلَيْهِ آخَرُ جَفَافَ بُسْتَانِهِ فَقَالَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَشَكَى إِلَيْهِ آخَرُ عَدَمَ الْوَلَدِ فَقَالَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ وَفِي الْآيَةِ حَثٌّ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَإِشَارَةٌ إِلَى وُقُوعِ الْمَغْفِرَةِ لِمَنِ اسْتَغْفَرَ "[١٩٠]. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله وقوله "وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ" أي: وآمركم بالاستغفار من

---

[١٨٩] تفسير الرازي (١٥/ ٤٨٠)

[١٩٠] فتح الباري (١١/ ٩٨)

الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك "يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا" أي: في الدنيا "إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ" أي: في الدار الآخرة". قاله قتادة.و قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ"[١٩١].

*- سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ:-

من الصيغ العظيمة للاستغفار ما رواه شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:" سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتني وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ"[١٩٢]. سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ:أي: أفضل أنواع صيغ الاستغفار يعني الأكثر ثوابًا عند الله.والأكثر نفعًا للمستغفر به والمراد المستغفر بهذا النوع من الاستغفار أكثر ثوابًا من المستغفر بغيره،قَالَ بن أَبِي جَمْرَةَ جَمَعَ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ بَدِيعِ الْمَعَانِي وَحُسْنِ الْأَلْفَاظِ مَا يَحِقُّ لَهُ أَنَّهُ يُسَمَّى سَيِّدَ الِاسْتِغْفَارِ فَفِيهِ الْإِقْرَارُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالِاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ وَالْإِقْرَارُ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ بِمَا وَعَدَهُ بِهِ وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا جَنَى الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ وَإِضَافَةُ النَّعْمَاءِ إِلَى مُوجِدِهَا وَإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَى نَفْسِهِ وَرَغْبَتُهُ فِي الْمَغْفِرَةِ وَاعْتِرَافُهُ بِأَنَّهُ

[١٩١] مسند أحمد (٤/ ١٠٤) قال محققه : إسناده ضعيف.
[١٩٢] البخاري رقم" ٦٣٠٦ " و أحمد (٢٨/ ٣٣٤)

لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا هُوَ... وَأَبُوءُ بِالْمُوَحَّدَةِ وَالْهَمْزِ مَمْدُودٌ مَعْنَاهُ أَعْتَرِفُ اعْتَرَفَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ ثُمَّ اعْتَرَفَ بِالتَّقْصِيرِ[193].

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام دعاء واستغفار لخير الأنام *– عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[194]

*–تكرار الذنب وتكرار التوبة :–

على العبد أن لا يأس من رحمة الله فالله غفار الذنوب وإن كثرت ،

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:" أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدُنَا يُذْنِبُ، قَالَ:" يُكْتَبُ عَلَيْهِ" قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ، قَالَ:" يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ " قَالَ: فَيَعُودُ فَيُذْنِبُ، قَالَ:" فَيُكْتَبُ عَلَيْه" قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ، قَالَ: " يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ، وَلَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا"[195] .عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً. فَقَالَ: اللّهُمّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذَ بِالذّنْبِ. ثُمّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ

---

[193] فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٠) شرح المشكاة للطيبي (٦/ ١٨٤٤)مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢ ، ٣٣)

[194] شرح النووي على مسلم (١٧/ ٤٠)

[195] رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ٢٠٠)

رَبّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنباً. فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ. ثُمّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبَاً. فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبّا يَغْفِرُ الذّنْب، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[196]. و عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا" قَالَ: «الْأَوَّابُ الَّذِي يُذْنِبُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ ، ثُمَّ يُذْنِبُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ» و عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا" قَالَ: «الْأَوَّابُ الَّذِي يَتَذَكَّرُ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهَا»[197] وقال رجل لرابعة:إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تُبت هل يتوب علي فقالت:لا بل لو تاب عليك لتبت[198]. بل إن الله تعالى يحب التائب ويفرح به فعَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ. وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ ثُمَّ قَالَ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ[199].

---

[196] مسلم: كتاب الذكر والدعاء ...باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت... ١٧/٧٥

[197] الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٥٧) ، (٢/ ٤٥٨)

[198] الرسالة القشيرية (١/ ٢١٤)

[199] البخاري :كتاب الدعوات باب التوبة ١١/١٠٥

عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ "، قِيلَ: فَإِنْ عَادَ؟ قَالَ: «يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَيَتُوبُ» ، قِيلَ: فَإِنْ عَادَ؟ قَالَ: «يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَيَتُوبُ» ، قِيلَ: حَتَّى مَتَى؟ قَالَ: «حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَحْسُورَ»[٢٠٠].

*–محقرات الذنوب:–

ولا نغتر برحمة الله التي وسعت كل شئ ولا نستهين بذنب ونجترئ على معصية الله عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المُوبِقَاتِ» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «يَعْنِي بِذَلِكَ المُهْلِكَاتِ»[٢٠١]. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ يُهْلِكْنَهُ ".وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: " كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»[٢٠٢] ".
وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَثَلُ الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَثَلُ قَوْمٍ نَزَلُوا مَنْزِلًا لَيْسَ بِهِ حَطَبٌ وَمَعَهُمْ لَحْمٌ ، فَلَمْ يَزَالُوا يَلْقُطُونَ حَتَّى جَمَعُوا مَا نَضَّجُوا بِهِ لَحْمَهُمْ»سئل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: من أعظم الناس ذنبا؟ قال: أعظم الناس ذنبا أن يستخف الرجل بذنبه[٢٠٣].

---

[٢٠٠] التوبة لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٤)

[٢٠١] صحيح البخاري كتاب الرقاق بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ رقم: ٦٤٩٢

[٢٠٢] رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ عِمْرَانَ بْنِ دَاوَدَ الْقَطَّانِ، وَقَدْ وُثِّقَ.

[٢٠٣] المجالسة وجواهر العلم رقم : ٢٩٧٣

*– إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١) أي :إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها.(نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ) نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم.

واختلف في الكبائر، والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه. وقيل ما علم حرمته بقاطع

وَدَلَّتْ إِضَافَةُ كَبائِرَ إِلَى مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ عَلَى أَنَّ الْمَنْهِيَّاتِ قِسْمَانِ: كَبَائِرُ، صَّغَائِرُ،وَسُمِّيَتْ هُنَا سَيِّئَاتٌ. وَوَعَدَ بِأَنَّهُ يَغْفِرُ السَّيِّئَاتِ لِلَّذِينِ يَجْتَنِبُونَ الكَبائِرَ ، وَقَالَ فِي آيَةِ النَّجْمِ [٣٢] الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) فَسَمَّى الْكَبَائِرَ فَوَاحِشَ وَسَمَّى مُقَابِلَهَا اللَّمَمَ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ عِنْدَ اللَّهِ قِسْمَانِ: مَعَاصٍ كَبِيرَةٌ فَاحِشَةٌ، وَمَعَاصٍ دُونَ ذَلِكَ يَكْثُرُ أَنْ يُلِمَّ الْمُؤْمِنُ بِهَا، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي تَعْيِينِ الْكَبَائِرِ.

*–وَيَتَرَتَّبُ عَلَى إِثْبَاتِ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ أَحْكَامٌ تَكْلِيفِيَّةٌ: مِنْهَا الْمُخَاطَبَةُ بِتَجَنُّبِ الْكَبِيرَةِ تَجَنُّبًا شَدِيدًا، وَمِنْهَا وُجُوبُ التَّوْبَةِ مِنْهَا عِنْد اقترابها، وَمِنْهَا أَنَّ تَرْكَ الْكَبَائِرِ يُعْتَبَرُ تَوْبَةً مِنَ الصَّغَائِرِ، وَمِنْهَا سَلْبُ الْعَدَالَةِ عَنْ مُرْتَكِبِ الْكَبَائِرِ، وَمِنْهَا نَقْضُ حُكْمِ الْقَاضِي الْمُتَلَبِّسِ بِهَا، وَمِنْهَا جَوَازُ هِجْرَانِ الْمُتَجَاهِرِ بِهَا، وَمِنْهَا تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ عَلَى الْمُتَلَبِّسِ بِهَا. وَتَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مَسَائِلُ فِي أُصُولِ الدِّينِ: مِنْهَا تَكْفِيرُ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ

الْخَوَارِجِ، الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَعَاصِي الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَاعْتِبَارُهُ مَنْزِلَةً بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ، خِلَافًا لِجُمْهُورِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ[٢٠٤].

*–أرجى آية في القرآن الكريم:–

وبعد هذه المدارسة لموضوع التوبة حري بنا أن نذكر ما قاله علماؤنا في عدهم لأرجى آية في كتاب الله تعالى ولكل وجهة .

*– عن معمر قال: وبلغني أن عمر بن الخطاب مر به ركب فأرسل إليهم يسألهم من هم فقالوا جئنا من الفج العميق فقال أين تريدون فقالوا نؤم البيت العتيق فرجع إليه الرسول فأخبره فقال عمر إن لهؤلاء لنبأ ثم أرسل إليهم أي آية في كتاب الله أحكم قالوا(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)الزلزلة. فقال أي آية أعدل قالوا(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) قال فأي آية أعظم قالوا (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢٥٥:البقرة) قال فأي آية أرجى قالوا(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) قال فأي آية أخوف قالوا(مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ(١٢٣: النساء) قال سلهم أفيهم ابن أم عبد؟ قالوا نعم[٢٠٥].

*– وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك ؟ فقال : قول الله (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا

[٢٠٤] البيضاوي (٢/ ٧١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٦)

[٢٠٥] تفسير القرآن للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني ٣/٣٨٨، ٣٨٩ –والرواية منقطعة–تحقيق د. مصطفى مسلم محمد الناشر مكتبة الرشد الرياض ١٤١٠

تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) الزمر الآية ٥٣ الآية . فقال ابن عباس : لكن أنا أقول : قول الله لإبراهيم (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى) فرضي من إبراهيم بقوله بلى فهذا لما يعترض في الصدور ويوسوس به الشيطان[٢٠٦] .

*- " وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "النور :٢٢
قال عبدالله بن المبارك هذه أرجى آية في كتاب الله [٢٠٧].
*- وقَالَ أَبو عُثْمَانَ النَّهْدِيَّ: " مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى عِنْدِي لِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ "وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٠٢)التوبة[٢٠٨].

وبعد فقد علمنا أن المراد بالتوبة الرجوع عن الذنب فالعبد الذي يراجع نفسه ويحاسبها سيجد نفسه مقصرا أو مذنبا فيعترف بتقصيره ويقر بذنبه فيتوب ويرجع والتَّوْبَةُ لَا تَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الذَّنْبِ، وَالِاعْتِرَافِ بِهِ، وَطَلَبِ التَّخَلُّصِ مِنْ سُوءِ عَوَاقِبِهِ أَوَّلًا وَ آخِرًا.وعلى العبد ألا يتهاون في عمل المعصية زاعما صغر الذنب فلينظر إلى عظمة من عصاه بل قد يكبر الذنب بسبب استصغاره عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ الذَّنْبَ فَيَحْتَقِرَهُ، فاحتقار الذنب ذنب آخر والغفلة عنه و التهاون بالمعصية طريق للهلاك فليحرص المؤمن على محاسبة نفسه وليبحث عن الداء والدواء وعليه بالقرآن الذي يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور والله يريد أن يهديكم عن سَلَامُ بْنُ

---

[٢٠٦] تفسير ابن أبي حاتم ٥٠٩/٢

[٢٠٧] مسلم كتاب التوبة باب حديث الإفك ١١٣/١٧

[٢٠٨] التوبة لابن أبي الدنيا (صـ ٦٣، ٦٤ .)تحقيق وتعليق: مجدي السيد إبراهيم. الناشر: مكتبة القرآن

مِسْكِينٍ، قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّكُمْ عَلَى دَائِكُمْ وَدَوَائِكُمْ، وَأَمَّا دَاؤُكُمْ فَذُنُوبُكُمْ، وَأَمَّا دَوَاؤُكُمْ فَالِاسْتِغْفَارُ[209] وها هو القرآن يدلنا على أفضل طريق لقبول التوبة "(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً (٥٣)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لاَ تنصَرُونَ (٥٤)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥)قال الواحدي:المفسرون كلهم قالوا:إن هذه الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام،كالشرك،وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ، والقتال ضده والزنا، فأنزل الله هذه الآية وفرح ﷺ بهذه الآية ورآها هو و أصحابه من أوسع الآيات في مغفرة الذنوب[210].وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه كما قال ابن مسعود و علي رضي الله عنهما ؛لاشتمالها على أعظم بشارة فإنه أولا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ثم عقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى وتخصيص الإسراف بأنفسهم فكأنه قيل ضرر الذنوب عائد عليهم لا عليّ فيكفي ذلك من غير ضرر آخر

واستحقاق العقاب عقاب عند أولي الألباب. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك فقال (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ) فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده كأنه قال إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان إلا ما أخرجه نص القرآن وهو الشرك (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) ثم لم

---

[209] التوبة لابن أبي الدنيا (ص: ٩٢)

[210] الوسيط :٥٨٨/٣، ٥٨٩

يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب بل أكد ذلك بقوله جَمِيعاً .. وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا إنه هو الغفور الرحيم أي كثير المغفرة والرحمة عظيمهما واسعهما ...[211] وإن التبشير وعدم التقنيط جاء في كتاب الله ودعا إليه رسوله ﷺ كما في قوله ﷺ (يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تنفِّروا[212])و الجمع بين هذه الآية وبين قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ هو أن كل ذنب كائنا ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له، ويمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض.

---

[211] الرازي :٤٥٧/١٣ الألوسي :١٣/٢٤-١٥

[212] البخاري : كتاب العلم باب ما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يتخولهم بالموعظة ..١٩٦/١

أهميته وفضله

يكفى هذا الركن العظيم فضلا أن الله سبحانه وتعالى أثني على أهله في كتابه المجيد فمن الآيات البينات التى أثني الله فيها على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر قوله تعالى(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتنهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ المؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ (١١٠) آل عمران. وَفِعْلُ (كَانَ) يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ مَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ فِي زَمَنٍ مَضَى، دُونَ دَلَالَةٍ عَلَى اسْتِمْرَارٍ، وَلَا عَلَى انْقِطَاعٍ، قَالَ تَعَالَى وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً(٩٦)النِّسَاء. أَيْ وَمَا زَالَ، فَمَعْنَى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ وُجِدْتُمْ عَلَى حَالَةِ الْأَخْيَرِيَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، أَيْ حَصَلَتْ لَكُمْ هَذِهِ الْأَخْيَرِيَّةُ بِحُصُولِ أَسْبَابِهَا وَوَسَائِلِهَا، لأنّهم اتَّصَفُوا بِالْإِيمَانِ، وَالدَّعْوَةِ لِلْإِسْلَامِ، وَإِقَامَتِهِ عَلَى وَجهه، والذبّ عَنهُ النُّقْصَانِ وَالْإِضَاعَةِ، فالمعنى وجدتم خير أمة لهذه الأوصاف ما تحققت فيكم... هذه الخيرية التي قدرها سبحانه لهذه الأمة منوطة بتحقيق أمرين أحدهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثاني: الإيمان المطلق بالله والإذعان له وتفويض الأمور إليه بعد الأخذ في الأسباب[٢١٣].

*- ومدحهم الله في قوله (التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ (١١٢) التوبة. فذكرهم مع أهل الطاعات بل خصهم بسر في هذا النظم الحكيم بذكر حرف

[٢١٣] التحرير والتنوير (٤/ ٤٩) زهرة التفاسير (٣/ ١٣٥٥)

العطف بين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فقال " الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المنكَرِ "حيث لم يذكر حرف العطف فيما تقدم من الأوصاف لأن المراد الإتيان بما أمكن منها، فأتى بها اتباعاً دون عطف لذلك، وأشار إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند الحدود لا يقنع منه إلا بالتمام لأن المقصر في شيء من ذلك إما راض بهدم الدين وإما هادم بنفسه، فيجب التجرد التام فيه لأن النهي أصعب أقسام العبادة لأنه متعلق بالغير وهو مثير للغضب موجب للحمية وظهور الخصومة، فربما كان عنه ضرب وقتل، فلذلك عطفها ولم يتبعها فقال: "والناهون"أي بغاية الجد "عن المنكر"أي البدعة[٢١٤]. وقال في المغني عن سر العطف إنما كان من جهة إن الأمر والنهي من حيث هما أمر ونهي متقابلان بخلاف بقية الصفات لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر وهو ترك المعروف والناهي عن المنكر آمر بالمعروف فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين وأنه لا يكفي فيه ما يحصل في ضمن الآخر، وحاصله على ما قيل: إن العطف لما بينهما من التقابل أو لدفع الإيهام[٢١٥]. عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَامُ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ: قُلْتُ: مَا أَشَدَّ هَذَا، فَقَالَ سُفْيَانُ: وَمَا شِدَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ إِنَّمَا جَاءَتْ بِهِ امْرَأَةٌ عَنِ امْرَأَةٍ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ نَبِيَّكُمْ ﷺ، فَقَرَأَ {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨] ، وَقَالَ: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا

---

[٢١٤] تفسير الرازي (١٦/ ١٥٥) نظم الدرر (٩/ ٢٨)

[٢١٥] تفسير الألوسي (٦/ ٣١) التحرير والتنوير (١١/ ٤١)،

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٢] وَقَالَ: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء: ١١٤] الْآيَةَ[٢١٦]

*- و مدحهم ﷻ في قوله تعالى (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) الحج. الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أجل القربات إلى الله تعالى فبه يحفظ الدين ويعلو شأنه لذا أمر الله به وأثني على القائمين به فهم أولى الناس بالتمكين في الأرض لأنهم يحافظون عليها بالإصلاح والأخذ بيد المفسدين.

وهو من مقتضيات ولاية المؤمنين لبعضهم (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)التوبة.

والصالحون من أهل الكتاب يتمسكون به قال تعالى(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

---

[٢١٦] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٥٦) [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٣٨٩٢ - سكت عنه الذهبي في التلخيص وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٠٨) ،سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط (٥/ ١١٨)إسناده ضعيف لجهالة أم صالح. مسند أبي يعلى الموصلي (١٣/ ٥٨)

[حكم حسين سليم أسد] : إسناده حسن شعب الإيمان (٧/ ٣٠) دَخَلَ لَفْظُ حَدِيثِ أَحَدِهِمَا فِي حَدِيثِ الْآخَرِ " نزهة الألباب في قول الترمذي «وفي الباب» (٥/ ٣١٨٠)

والبخاري في التاريخ ١/ ٢٦٢ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٨ المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب (٢/ ٨٥٥)

قال الحافظ المنذري: رواته ثقات، وفي محمَّد بن يزيد كلام قريب لا يقدح، وهو شيخ صالح كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح (٢/ ٢٦٩) قلت: رواه الترمذي في الزهد وابن ماجه في الفتن من حديث أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان وسنده حسن

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)آل عمران.

*- ولو لم يكن لأهل تلك الفريضة إلا النجاة من النفاق لكفاهم لأن من صفات المنافقين تركهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال عز وجل(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ (٦٧)التوبة

حكمه:-

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب بالإجماع كما نقله الإمام النووي وغيره. قال تعالى (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ (١٠٤) آل عمران. وقيل بل من للتبعيض ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات،ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على مَن الإنكار عليه عبث ...[٢١٧] فإن قلت: ما شرائط النهى؟

قلت: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن، وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعا، لأن الواقع لا يحسن النهى عنه، وإنما يحسن الذم عليه

[٢١٧] تفسير الزمخشري (١/ ٣٩٦)

والنهى عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث[٢١٨].

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يباشر الإنكار؟ قلت: يبتدئ بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأنّ الغرض كف المنكر. قال اللّٰه تعالى: فأصلحوا بينهما، ثم قال: فقاتلوا، فإن قلت: فمن يباشره؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار، لأنه معلوم قبحه لكل أحد. وأما الإنكار الذي بالقتال، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها. فإن قلت: فمن يُؤمر ويُنهى؟ قلت: كل مكلف، وغير المكلف إذا همَّ بضرر غيره مُنع، كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوّدوها، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها. فإن قلت: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه قلت: نعم يجب عليه، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر. وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا. وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد اللّٰه يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأينا يفعل ما يقول؟ ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر[٢١٩]. قال ابن عاشور: هذا الْخِطَابُ إِنْ كَانَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فـ(مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ وَ الْمُرَادُ بِالْأُمَّةِ الطَّائِفَةَ إِذْ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ مَأْمُورِينَ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ

---

[٢١٨] تفسير الزمخشري (١/ ٣٩٨)

[٢١٩] تفسير الزمخشري (١/ ٣٩٨)

،

الْمُنْكَرِ، بَلْ يَكُونُ الْوَاجِبُ عَلَى الْكِفَايَةِ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ ابْنُ عَطِيَّةَ، وَالطَّبَرِيُّ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْمَأْمُورُ جَمَاعَةً غَيْرَ مُعَيَّنَةٍ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ حُصُولُ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي فُرِضَ عَلَى الْأُمَّةِ وُقُوعُهُ.وقد تَكُون (مِنْ) بَيَانِيَّةً بِمَعْنَى أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْأُمَّةَ وَيَكُونَ الْمُرَادُ بِكَوْنِهِمْ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِقَامَةُ ذَلِكَ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَخْلُوا عَنْ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ الْحَاجَةِ وَمِقْدَارِ الْكَفَاءَةِ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ،وَحُذِفَتْ مَفَاعِيلُ يَدْعُونَ وَيَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ لِقَصْدِ التَّعْمِيمِ أَيْ يَدْعُونَ كُلَّ أَحَدٍ.وَالْمَعْرُوفُ وَالْمُنْكَرُ إِنْ كَانَا ضَرُورِيَّيْنِ كَانَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى فِيهِمَا، وَإِنْ كَانَا نَظَرِيَّيْنِ، فَإِنَّمَا يَقُومُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِيهِمَا أَهْلُ الْعِلْمِ[٢٢٠].

*- بيان خطأ من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:-

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ –عند أبي داود وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا – "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"المائدة: ١٠٥. وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ"نتعلم من سيدنا أبي بكر صديق الأمة أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنفيذا لأمر الله تعالى ولأمر رسوله فقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٢٢١]. بعض الناس فهم قوله تعالى" عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ " على غير وجهه وتكاسل بل وتهاون بشأن تلك الفريضة التي رفعتنا للخيرية المطلقة،فصحح

[٢٢٠] التحرير والتنوير (٤/ ٣٩-٤١)

[٢٢١] صحيح مسلم رقم :٤٩

الصديق هذا الفهم وقال لهم قد حملتموها على غير وجهها يريد أنكم تفهمون منها أن النهي عن المنكر غير واجب مطلقاً، وليس كذلك فمعنى عليكم أنفسكم أي إذا أديتم ما أمرتم به وأنتم قد فرض عليكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم ذكرهم بحديث سيدنا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغيرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ» ذكر ابن رجب عدة أحاديث تتعلق بهذا الموضوع ثم قال :فَدَلَّتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا عَلَى وُجُوبِ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا إِنْكَارُهُ بِالْقَلْبِ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَمَنْ لَمْ يُنْكِرْ قَلْبُهُ الْمُنْكَرَ، دَلَّ عَلَى ذَهَابِ الْإِيمَانِ مِنْ قَلْبِهِ[٢٢٢].

*- وقد تصل عقوبة من يتهاون بهذه الفريضة الطرد من رحمة الله.

قال تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لاَ يَتناهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) المائدة .قوله(كانُوا لا يَتناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ) أي كان من دأبهم ألا ينهى أحد منهم أحدا عن منكر يقترفه مهما قبح وعظم ضرره، والنهى عن المنكر هو حفاظ الدين، وسياج الفضائل و الآداب، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وفجورهم ورآهم الغوغاء من الناس قلدوهم فيه، وزال قبحه من نفوسهم، وصار عادة لهم، وزال سلطان الدين من قلوبهم وتركت أحكامه وراءهم ظهريا[٢٢٣]. وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ - قَالَ يَزِيدُ: أَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَسْوَاقِهِمْ - وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ

---

[٢٢٢] جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٤٥)

[٢٢٣] تفسير المراغي (٦/ ١٧١)

بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ "، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: " لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا "[٢٢٤]

قيل لابن مسعود رضي الله عنه من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا.

قَال أَبو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعُمَرِيَّ: «إِنَّ مِنْ غَفْلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ إِعْرَاضُكَ عَنِ اللَّهِ، بِأَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُهُ فَتُجَاوِزَهُ، لَا تَأْمُرَ فِيهِ، وَلَا تنهَى، خَوْفًا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا» وَ يَقُولُ: «مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ مَخَافَةِ الْمَخْلُوقِينَ نُزِعَتْ مِنْهُ هَيْبَةُ الطَّاعَةِ، فَلَوْ أَمَرَ وَلَدَهُ أَوْ بَعْضَ مَوَالِيهِ لَاسْتَخَفَّ بِهِ»[٢٢٥].

قَالَ عُرْوَةُ بن الزبير : " غَشِيَتْكُمْ سَكْرَتَانِ: سَكْرَةُ الْجَهْلِ وَسَكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا تَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تنهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ "[٢٢٦]

عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ، قَالَ: «سَيَكُونُ آخِرَ الزَّمَانِ رَجْرَاجَةٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ حَقًّا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، يَتَرَاكَبُونَ كَمَا تَتَرَاكَبُ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ»[٢٢٧]

---

[٢٢٤] مسند أحمد (٦/ ٢٥٠ ، ٢٥١)قال محققه – باختصار –إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو عبيدة –وهو ابن عبد الله بن مسعود– لم يسمع من أبيه، وشريك بن عبد الله –وهو النخعي القاضي– سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الترمذي (٣٠٤٧) من طريق يزيد بن هارون، بهذا الإسناد. وقال: هذا حديث حسن غريب.وأخرجه الطبراني في "الكبير" (١٠٢٦٥) وابن ماجه (٤٠٠٦) ، والطبري في "التفسير" (١٢٣١٠) وأبو داود (٤٣٣٦) والطبراني في "الكبير" (١٠٢٦٤)

[٢٢٥] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٥٧)

[٢٢٦] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧٧)

[٢٢٧] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧٧)

كَانَ كُرْزٌ- كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ الْحَارِثِيُّ، كَانَ يَسْكُنُ جُرْجَانَ، كُوفِيُّ الْأَصْلِ

- إِذَا خَرَجَ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، فَيضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ»[٢٢٨]

قَالَ شُجَاع بْن الْوَلِيدِ«كُنْتُ أَخْرُجُ مَعَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، فَمَا يَكَادُ لِسَانُهُ يَفْتُرُ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ذَاهِبًا وَرَاجِعًا»[٢٢٩]

*- مجالات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:-

ما جاء الأمر به في الكتاب والسنة، أو الندب إليه والحث عليه، أو الثناء على أهله، أو الإخبار بأنه مما يحبه الله تعالى ويرضاه، ويكرم أهله بالثواب العاجل والآجل، فهو من المعروف الذي يؤمر به. وما ورد النهي عنه في الكتاب والسنة، والتحذير منه، وبيان عظيم ضرره، وكبير خطره في الدنيا والآخرة، أو جاء ذم أهله ووعيد فاعله بالسخط والعذاب والخزي والعار، ودخول النار ونحو ذلك فهو من المنكر الذي ينهى عنه.والأمر بالمعروف (وهو ما أمر به شرعا وحسن عقلا) والنهي عن المنكر (وهو ما حظر شرعا وقبح عقلا).[٢٣٠]

*- إِنْ خَشِيَ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يُؤْذِيَ أَهْلَهُ أَوْ جِيرَانَهُ، لَمْ يَنْبَغِ لَهُ التَّعَرُّضُ لَهُمْ حِينَئِذٍ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَعَدِّي الْأَذَى إِلَى غَيْرِهِ، كَذَلِكَ قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَغَيْرُهُ، وَمَعَ هَذَا، فَمَتَى خَافَ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ السَّيْفَ، أَوِ السَّوْطَ، أَوِ الْحَبْسَ، أَوِ

---

[٢٢٨] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٧٩، ٨٠)

[٢٢٩] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٣)

[٢٣٠] التفسير المنير للزحيلي (١٧/ ٢٣١)

الْقَيْدَ، أَوِ النَّفْيَ، أَوْ أَخْذَ الْمَالِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأَذَى، سَقَطَ أَمْرُهُمْ وَنَهْيُهُمْ، وَقَدْ نَصَّ الْأَئِمَّةُ عَلَى ذَلِكَ، مِنْهُمْ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَغَيْرُهُمْ.

قَالَ أَحْمَدُ: لَا يَتَعَرَّضُ لِلسُّلْطَانِ، فَإِنَّ سَيْفَهُ مَسْلُولٌ.

وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ كَالْجِهَادِ، يَجِبُ عَلَى الْوَاحِدِ أَنْ يُصَابِرَ فِيهِ الِاثْنَيْنِ، وَيَحْرُمَ عَلَيْهِ الْفِرَارُ مِنْهُمَا، وَلَا يَجِبَ عَلَيْهِ مُصَابَرَةُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَإِنْ خَافَ السَّبَّ، أَوْ سَمَاعَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ الْإِنْكَارُ بِذَلِكَ نَصَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَإِنِ احْتَمَلَ الْأَذَى، وَقَوِيَ عَلَيْهِ، فَهُوَ أَفْضَلُ، نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ أَيْضًا،[٢٣١]

*- قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيَّ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ الَّذِي قَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ وَأَنْتَ تَرَى غَيْرَهُ فَلَا تنهَهُ"[٢٣٢].

*- على الآمر بالمعروف أن يكون أول الناس به وأن يكون عند نهيه عن المنكر أن يكون أبعد الناس عنه قال تعالى" أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) البقرة" التوبيخ والتعجيب من نسيان النفس وليس الأمر بالبر بل لابد منه فمَحَلَّ الْفَظَاعَةِ الْمُوجِبَةِ لِلنَّهْيِ هِيَ مَجْمُوعُ الْأَمْرَيْنِ.أي التعجب للحال التي يجتمع فيها الأمر بالخير والحث عليه مع ترك أنفسهم لَا تفعلها، وكأنهم نسوها ولم يذكروها[٢٣٣]. قَالَ: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «إِنِّي لَآمُرُكَ بِالْأَمْرِ وَمَا أَفْعَلُهُ، وَلَكِنْ أَرْجُو أَنْ أُؤْجَرَ

---

[٢٣١] جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٤٩)

[٢٣٢] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٦٨)

[٢٣٣] التحرير والتنوير (١/ ٤٧٥) زهرة التفاسير (١/ ٢١٦)

فِيهِ»[٢٣٤].وليس هذا دعوة لترك العمل بل دعوة للأمر بالمعروف والإعانة عليه فقد قَالَ ﷺ: وَيْلٌ لِلَّذِي لاَ يَعْلَمُ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِلَّذِي يَعْلَمُ وَلاَ يَعْمَلُ سَبْعَ مَرَّاتٍ فاجمع بين القولين تفلح[٢٣٥] وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُطَرِّفَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: لَا أَقُولُ مَا لَا أَفْعَلُ، فَقَالَ: وَأَيُّنَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ؟ وَدَّ الشَّيْطَانُ لَوْ ظَفِرَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْكُمْ فَلَا يَأْمُرُ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ[٢٣٦].

عَنْ هَارُونَ بْنِ رِئَابٍ، قَالَ: " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَدُورُ فِي النَّارِ مِثْلَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، إِذْ نَادَاهُ أَهْلُ النَّارِ: وَيْلَكَ مَا لَنَا نَرَاكَ تُعَذَّبُ عَذَابًا لَا يُعَذَّبُهُ أَحَدٌ؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْمَلُ بِهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَعْمَلُ بِهِ "[٢٣٧].هذا لمن نسي نفسه وغفل عنها أما من فهم ما عليه فأداه والتزم الواجبات بقدر طاقته فليس من أصحاب هذا الذم ،قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «لَوْ أَنَّ الْمَرْءَ، لَا يَعِظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ، وَيُكْمِلَ الَّذِي خُلِقَ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، إِذَنْ لَتَوَاكَلَ النَّاسُ الْخَيْرَ، وَإِذَنْ يُرْفَعُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقل الْوَاعِظُونَ وَالسَّاعُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّصِيحَةِ فِي الْأَرْضِ»[٢٣٨]

---

[٢٣٤] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٢) و سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢/ ٣٤٥)

[٢٣٥] سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٧)

[٢٣٦] مفاتيح الغيب (٨/ ٣١٥)

[٢٣٧] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٢)

[٢٣٨] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٩)

*- قصة أصحاب القرية الذين اعتدوا في السبت:

قال تعالى (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) الأعراف، ومجمل القصة رويت عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا"قَالَ: هِيَ قَرْيَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْمَدِينَةِ، يُقَالُ لَهَا: "أَيْلَةُ"-العقبة-، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحِيتَانَ يَوْمَ سَبْتِهِمْ، وَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَإِذَا مَضَى يَوْمُ السَّبْتِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا. فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنْ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَخَذُوا الْحِيتَانَ يَوْمَ سَبْتِهِمْ، فَنَهَتْهُمْ طَائِفَةٌ وَقَالُوا: تَأْخُذُونَهَا وَقَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ سَبْتِكُمْ؟ فَلَمْ يَزْدَادُوا إِلَّا غَيًّا وَعُتُوًّا، وَجَعَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى تنهاهُمْ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النُّهَاةِ: تَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، "لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا"وَكَانُوا أَشَدَّ غَضَبًا لِلَّهِ مِنَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى؟ فَقَالُوا: "مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"وَكُلٌّ قَدْ كَانُوا يَنْهَوْنَ، فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللَّهِ نَجَتِ الطَّائِفَتَانِ اللَّتَانِ قَالُوا: "لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ"وَالَّذِينَ

قَالُوا: "مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ"وَأَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الَّذِينَ أَخَذُوا الْحِيتَانَ، فَجَعَلَهُمْ قِرَدَةً.[239] .

* –وعَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَيَعُمَّهُمُ الْعَذَابُ وَلِهَذَا الْأَثَرِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ[240]

*– سَمِعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، يَقُولُ: " كَانَ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهِ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عُمِلَ الْمُنْكَرُ جِهَارًا، اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ كُلُّهُمْ "[241]

*– عَنْ أَبِي هَزَّانَ، قَالَ: " بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيهَا، فَوَجَدَا فِيهَا رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ فَعَمَدَ أَحَدُهُمَا إِلَى اللَّهِ ﷻ فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّا وَجَدْنَا فِيهَا عَبْدَكَ فُلَانًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدِهِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: «دَمِّرَاهَا وَدَمِّرَاهُ مَعَهَا، فَإِنَّهُ مَا مَعَّرَ وَجْهَهُ فِيَّ قَطُّ» و عَنْ مِسْعَرٍ، قَالَ: " بَلَغَنِي، أَنَّ مَلَكًا، أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، فِيهَا فُلَانٌ الْعَابِدُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ «أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ» و قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: " أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: قُلْ

---

[239] تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤)

[240] فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤)

[241] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٢)

لِقَوْمِكَ: لَا يَدْخُلُوا مَدْخَلَ أَعْدَائِي، وَلَا يَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي، وَلَا يَرْكَبُوا مَرَاكِبَ أَعْدَائِي، فَيَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي "[٢٤٢].

نماذج يقتدى بهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر:

أئمتهم وقدوتهم الأنبياء عليهم السلام فقد اجتهد أنبياء الله في الأمر بالمعروف و أعلاه الإيمان بالله وحده والنهي عن المنكر وأشده الشرك بالواحد الأحد فكانت دعوتهم ورسالتهم النصح لقومهم وإرشادهم لكل خير فذلكم سيد المرسلين يصفه ربه بقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ (١٥٧)وهذا نوح عليه السلام "وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)"الأعراف). وكذلك هود : "أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) (الأعراف) ومثلهم صالح "لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)الأعراف. أما سيدنا إبراهيم فكان قدوة في هذا الشأن الكبير فكان يأمر بالمعروف بلسانه وبيده حيث حاج الملك الذي قال أنا أحيي وأميت وغلبه وبهت الذي كفر وحاج عباد النجوم وغلبهم وحاج عباد الأصنام وقهرهم وفعل كل ما يقدر عليه فقد كسر أصنامهم و ألبزمهم الحجة عليه الصلاة والسلام.فهو إبراهيم الذي وفي حتى ألقى في النار وهاجر إلى ربه فهداه الله واتخذه خليلا.

---

[٢٤٢] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٨– ١١٠)

عَنِ الْحَسَنِ:" أَنَّ رَجُلًا، كَانَ يُقَالُ لَهُ: عُقَيْبٌ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَكَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ يُعَذِّبُ النَّاسَ بِالْمَثُلَاتِ، فَقَالَ عُقَيْبٌ: لَوْ نَزَلْتُ إِلَى هَذَا فَأَمَرْتُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ كَانَ أَوْجَبَ عَلَيَّ، فَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ، فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ، فَقَالَ لَهُ الْجَبَّارُ: يَا كَلْبُ، مِثْلُكَ يَأْمُرُنِي بِتَقْوَى اللَّهِ، لَأُعَذِّبَنَّكَ غَدًا عَذَابًا لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُسْلَخَ مِنْ قَدَمَيْهِ إِلَى رَأْسِهِ وَهُوَ حَيٌّ فَسُلِخَ، فَلَمَّا بَلَغَ بَطْنَهُ أَنَّ أَنَّةً، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: عُقَيْبُ اصْبِرْ أُخْرِجْكَ مِنْ دَارِ الْحُزْنِ إِلَى دَارِ الْفَرَحِ، وَمِنْ دَارِ الضِّيقِ إِلَى دَارِ السَّعَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ السَّلْخُ إِلَى وَجْهِهِ صَاحَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: عُقَيْبُ أَبْكَيْتَ أَهْلَ سَمَائِي وَأَهْلَ أَرْضِي وَأَذْهَلْتَ مَنْ لَا يَكُفُّ عَنْ تَسْبِيحِي، لَئِنْ صِحْتَ الثَّالِثَةَ لَأَصُبَّنَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ صَبًّا، فَصَبَرَ حَتَّى سُلِخَ وَجْهُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَأْخُذَ قَوْمَهُ الْعَذَابُ "[243].

*–من أجل صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر النصيحة في الدين

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» [244]

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[245] هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَطَاعَتُهُمْ فِيهِ وأمرهم به وتنبيههم وَتَذْكِيرُهُمْ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ وَإِعْلَامُهُمْ بِمَا غَفَلُوا عَنْهُ وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرْكُ

---

[243] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٩١)

[244] صحيح البخاري (١/ ٢١) رقم ٥٧ ومسلم ٩٧

[245] صحيح مسلم (١/ ٧٤) رقم ٩٥

الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ وَتَأَلُّفُ قُلُوبِ النَّاسِ لِطَاعَتِهِمْ، وَأَمَّا نَصِيحَةُ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ مَنْ عَدَا وُلَاةِ الْأَمْرِ فَإِرْشَادُهُمْ لِمَصَالِحِهِمْ فِي آخِرَتِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَكَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ فَيُعَلِّمُهُمْ مَا يَجْهَلُونَهُ مِنْ دِينِهِمْ وَيُعِينُهُمْ عَلَيْهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ... وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرِفْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَالشَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ ... وَتَخَوُّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَقَدْ كَانَ فِي السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَنْ تَبْلُغُ بِهِ النَّصِيحَةُ إِلَى الْإِضْرَارِ بِدُنْيَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[٢٤٦]. عَلَيْكَ النَّصِيحَةُ لأخيك إن أخطأ فهو محتاج إليها وَذَلِكَ بِأَنْ تَذْكُرَ آفَاتِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَفَوَائِدَ تَرْكِهِ، وَتُخَوِّفَهُ بِمَا يَكْرَهُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِيَنْزَجِرَ عَنْهُ، وَتنبِّهَهُ عَلَى عُيُوبِهِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سِرٍّ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَمَا كَانَ عَلَى الْمَلَأِ فَهُوَ فَضِيحَةٌ، وَمَا كَانَ فِي السِّرِّ فَهُوَ شَفَقَةٌ وَنَصِيحَةٌ، قَالَ " ذو النون ": " لَا تَصْحَبْ مَعَ اللَّهِ إِلَّا بِالْمُوَافَقَةِ، وَلَا مَعَ الْخَلْقِ إِلَّا بِالْمُنَاصَحَةِ، وَلَا مَعَ النَّفْسِ إِلَّا بِالْمُخَالَفَةِ ".

أداب وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

*- لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شُرُوطٌ مُبَيَّنَةٌ فِي الْفِقْهِ وَالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ، منها أنه يشْتَرط أَن لَا يَجُرَّ النَّهْيُ إِلَى مُنْكَرٍ أَعْظَمَ.وَهَذَا شَرْطٌ قَدْ خَرَمَ مَزِيَّةَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاتَّخَذَهُ الْمُسْلِمُونَ ذَرِيعَةً لِتَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ. وَلَقَدْ سَاءَ فهمهم فِيهِ إِذا مُرَادُ مُشْتَرِطِهِ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْأَمْرَ أَنَّ أَمْرَهُ يَجُرُّ إِلَى مُنْكَرٍ أَعْظَمَ لَا أَن يخاف أَو يُتَوَهَّمَ إِذِ الْوُجُوبُ قَطْعِيٌّ لَا يُعَارِضُهُ إِلَّا ظَنٌّ أَقْوَى.[٢٤٧]

---

[٢٤٦] شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٧-٣٩)

[٢٤٧] التحرير والتنوير (٤/ ٣٩-٤١)

*- ومنه التحصن بالعلم والفهم والصبر ونحو ذلك ما لابد منه للقيام بذلك الركن المهم.حيث يشترط أن يكون الآمر والناهي على علم كما قال تعالى " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي"يوسف:١٠٨.

*- وعليه البدء بالأهم فالأهم

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ"[٢٤٨].

*- لا تنه عن المختلف فيه :قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيَّ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ الَّذِي قَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ وَأَنْتَ تَرَى غَيْرَهُ فَلَا تنهَهُ"[٢٤٩].

*-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلطف

يكون ذلك باللطف والرفق يرى المقصود به؛ ليقرر به عنده الحجة، ويزيل عنه الشبهة من الوجه الذي يحتمله عقله، ويبلغه فهمه، فإن رآه يتعامى في ذلك يوعده ويخوفه

---

[٢٤٨] صحيح البخاري رقم: ١٤٩٦) صحيح مسلم رقم:١٩ مسند أحمد (٣/ ٤٩٨)

[٢٤٩] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٦٨)

بالذي في ذاك من الوعيد..."[250]. كَانَ " عمر " ﷺ يَسْتَهْدِي ذَلِكَ مِنْ إِخْوَانِهِ وَيَقُولُ: " رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَهْدَى إِلَى أَخِيهِ عُيُوبَهُ ". فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أُخْرَى إِلَى حَدٍّ لَا يُؤَدِّي إِلَى الْإِيحَاشِ يستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة

وقال الشافعي ﷺ من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه

وقيل لمسعر أتحب من يخبرك بعيوبك فقال إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم وإن قرعني بين الملأ فلا.

صور ومواقف للسلف في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

*- نَظَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ إِلَى رَجُلٍ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ صَلَاةَ سُوءٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: " قُمْ صَلِّ، فَقَالَ: قَدْ صَلَّيْتُ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا تَبْرَحُ حَتَّى تُصَلِّي، قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا يَا أَعْرَجُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَتُصَلِّيَنَّ أَوْ لَيَكُونَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ عَلَيْنَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَقَامَ الرَّجُلُ فَصَلَّى صَلَاةً حَسَنَةً»

*- «كَانَ الْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعِظَ، أَخًا لَهُ كَتَبَهُ فِي لَوْحٍ وَنَاوَلَهُ"[251]

[250] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٢/ ٣٨٧)

[251] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٩٨)

*-" مَرَّ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ عَلَى حُجْرِ بْنِ وَائِلٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ، فَأَصْغَى إِلَيْهِ، ثُمَّ مَضَى، فَقَالَ حُجْرٌ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا قَالَ؟ قَالَ: رَأَيْتُكَ فِي الْجُمُعَةِ تَلْتَفِتُ، لَا تَفْعَلْ "[252]

*- دَخَلَ لِصٌّ على مَالِكِ بنِ دِيْنَارٍ ، فَمَا وَجدَ مَا يَأْخُذُ، فَنَادَاهُ مَالِكٌ: لَمْ تَجِدْ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا، فَترغَبُ فِي شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ؟قَالَ: نَعَمْ.قَالَ: تَوَضَّأْ، وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ.فَفَعَلَ، ثُمَّ جَلَسَ، وَخَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، فَسُئِلَ: مَنْ ذَا؟

قَالَ: جَاءَ لِيَسرِقَ، فَسَرَقْنَاهُ[253] .

*- عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ، قَالَ: «كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ إِذَا رَأَى مِنْ أَخِيهِ شَيْئًا يَأْمُرُهُ فِي رِفْقٍ، فَيُؤْجَرُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَإِنَّ أَحَدَ هَؤُلَاءِ يَخْرِقُ بِصَاحِبِهِ، وَيَسْتَعْقِبُ أَخَاهُ، وَيَهْتِكُ سِتْرَهُ»[254] .

*- رَأَى مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ رَجُلًا مَعَ امْرَأَةٍ فِي خَرَابٍ وَهُوَ يُكَلِّمُهَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرَاكُمَا، سَتَرَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمَا "

*- عَنْ ثَابِتٍ، " أَنَّ صِلَةَ بْنَ أَشْيَمَ، وَأَصْحَابَهُ أَبْصَرُوا رَجُلًا قَدْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فَأَرَادَ أَصْحَابُهُ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَقَالَ صِلَةُ: دَعُونِي أَكْفِيكُمُوهُ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ لِي

---

[252] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٩٩

[253] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥/ ٣٦٣)

[254] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٠)

إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: فَمَا ذَاكَ يَا عَمِّ؟ قَالَ: تَرْفَعُ إِزَارَكَ، قَالَ: نَعَمْ، وَنِعْمَةُ عَيْنٍ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا كَانَ مِثْلَ لَوْ أَخَذْتُمُوهُ بِشِدَّةٍ؟، قَالَ: لَا أَفْعَلُ، وَفَعَلَ "[255]

*- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للوالدين: سَأَلَ الْحَسَنَ يَا أَبَا سَعِيدٍ، " الرَّجُلُ يَأْمُرُ وَالِدَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمَا عَنِ الْمُنْكَرِ،؟ قَالَ: يَأْمُرُهُمَا إِنْ قَبِلَا، وَإِنْ كَرِهَا سَكَتَ عَنْهُمَا "[256]

*- عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، قَالَ: " قَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ: تَأْمُرُ مَنْ لَا يَقْبَلُ مِنْكَ؟، قَالَ: يَكُونُ مَعْذِرَةً"[257].

*-كان يوسف بن أسباط لا يرى أن يأمر السفلة بمعروف مخافة أن تسبه وتؤذيه.[258]

*- عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: " قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: " آمُرُ السُّلْطَانَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: إِنْ خِفْتَ أَنْ يَقْتُلَكَ فَلَا، قَالَ: ثُمَّ عُدْتُ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عُدْتُ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَفِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ "[259]

---

[255] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٨٩، ٩٠

[256] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٨٣)

[257] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١١٩)

[258] المجالسة للدينورى رقم:٢٥٧٥

[259] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١١٣)

أمر سبحانه وتعالى عباده بإخلاص العبادة له ، و بين أن الأعمال لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله وحده قال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥ البينة).قال القرطبي: (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أي العبادة ومنه قوله تعالى : قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره[٢٦٠].

الإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه .وهو ركن العبادة الأعظم وهو من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب.وحاصله أن تقطع نيتك عن تعليق العمل لغير الله، فلا تقصد بعملك إلا الذي أمرك به. وتحقيقه ألا تقصد بعملك حظ نفسك المختصة بك فكيف أن تعلقه بغيرك؟ فإن تطيبت مثلاً فقل عطري وعطر أهلى ولكن قل: لملائكة ربي والاقتداء بسنة نبيي وهذا الأكل ليس للذتي وإنما للقوة على عبادة ربي ، ومما يعينك على صحة وتجريد النية من الشوائب لغير الله الصدق [٢٦١].

وقد أمر الله تعالى خير خلقه به وذلك لأهميته وفضله فقال سبحانه (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينِ) فاعبده تعالى عبادة خاصة طاهرة من شوائب الشرك والرياء (أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) من كل شائبة وكدر،فهو الذي يجب أن تخلص له الطاعة،لاطلاعه على

---

[٢٦٠] القرطبي ١٤٤/٢٠

[٢٦١] قانون التأويل لابن العربي ص٦٦٩-٦٧٢

الغيوب والأسرار،ولخلوص نعمته على عباده من غير حصول منفعة منهم[262]. و بين الله أهميته أيضا بأن أخبرنا نبيه أنه أمر أن يبلغنا أنه مأمور بالاخلاص تأكيدا وتنبيها لخطورته وأهميته (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ):أخبرنا سبحانه و تعالى بأن نبيه عليه الصلاة والسلام مأمور من الله بعبادته مخلصا له الدين.و أخبرنا سبحانه بأنه أمر نبيه أن لا يعبد أحدا غير الله وأنه امتثل بالأمر فقال (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي) أي لا أعبد غيره سبحانه لا استقلالا ولا على جهة الشركة خالص لله غير مشوب بشرك ولا رياء وذلك يدل على إخلاصه عن الشرك الظاهر والخفي[263]. (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) الأنعام.

*- الإخلاص شرط لقبول العمل:

قال تعالى(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)الكهف و قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "[264] قال إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ فِي قوله تعالى(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)هود: ٧. أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا

[262] البحر المحيط ١٨٢/٩

[263] الكشاف ٣٩٢/٣ ، الرازي ٤٠٤/١٣، الألوسي ٢٥٠/٢٣ روح البيان : ٨٧/٨

[264] صحيح مسلم رقم (٢٩٨٥)

لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ[٢٦٥]

قال سهل بن عبد اللّه التُستَريُّ ﷺ: نظر الأكياسُ في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن يكون حركتُه وسكونه في سرِّه وعلانيته للّه تعالى، ولا يُمازجه نَفسٌ ولا هوىً ولا دنيا. قال الفُضيل بن عِياض: تركُ العمل لأجل الناس رياءٌ، والعمل لأجل الناس شِركٌ، والإخلاصُ أن يعافيَك اللّه منهما. وقال الإمام الحارث المحاسبيُّ رحمه اللّه: الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قَدْرٍ له في قلوب الخلق من أجل صَلاح قلبه، ولا يحبُّ اطّلاع الناس على مثاقيل الذرِّ من حسن عمله ولا يكرهُ أن يطلعَ الناسُ على السيئ من عمله.

بين النية والإخلاص:

وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية فعَنْ أنس قَالَ: أن رسول الله ﷺ رجع مِنْ غزوة تبوك فدنا من المدينة فقَالَ: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا وكانوا معكم.قالوا يا رسول الله،وهم بالمدينة؟ قال:وهم بالمدينة،حبسهم العذر[٢٦٦].

وعَنْ أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال الرجل يقاتل حمية و يقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل اللَّه؟ قال: من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي

[٢٦٥] الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠، ٥١)

[٢٦٦] البخاري: كتاب المغازي باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر٧/٧٣٢

العليا فهو في سبيل اللَّه[٢٦٧] .عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عز وجل قَالَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ،فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حسنةً كَامِلَةً.فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً[٢٦٨] .

عن ابن المبارك قال:رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية.

وعن سفيان الثوري قال ما عالجت شيئا أشد على من نيتي لأنها تنقلب علي.

وعن يوسف بن أسباط قال: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

قال ابن عجلان لا يصلح العمل إلا بثلاث التقوى لله والنية الحسنة والإصابة.

وقيل لنافع بن جبير ألا تشهد الجنازة قال: كما أنت حتى أنوي قال: ففكر هنيهة ثم قال: امضو[٢٦٩] .

فبالنية الصالحة تقبل الأعمال وتنجو من الرياء الذي يحبطها ولكن احذر من ترك العمل بوسوسة من الشيطان فإذا نويت وعملت فلا تبطله بوسوسته يقول إنك مراء بل أكمل عملك وزد فيه رغما للشيطان وانظر إلى فطنة علمائنا من السلف الصالح

---

[٢٦٧] البخاري:كتاب التوحيد باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ١٣/٤٥٠

[٢٦٨] البخاري:كتاب الرقاق باب من همَّ بحسنة أو بسيئة ١١/٣٣١. ومسلم من إذا همَّ العبد بحسنة أو بسيئة.١١/٣٣١

[٢٦٩] الرسالة القشيرية صـ١٦٢ ، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صلى الله عليه وسلم للإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي مكتلة المتنبي القاهرة صـ٥ ،٧

عَنْ يَحْيَى بْنِ عَتِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: الرَّجُلُ يَتْبَعُ الْجَنَازَةَ لَا يَتْبَعُهَا حِسْبَةً يَتْبَعُهَا حَيَاءً مِنْ أَهْلِهَا لَهُ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ قَالَ: «أَجْرٌ وَاحِدٌ بَلْ لَهُ أَجْرَانِ أَجْرٌ لِصَلَاتِهِ عَلَى أَخِيهِ وَأَجْرٌ لِصِلَتِهِ الْحَيِّ»[٢٧٠]

عَنْ يَحْيَى بْنِ عَتِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: الرَّجُلُ يَتْبَعُ الْجَنَازَةَ لَا يَتْبَعُهَا حِسْبَةً يَتْبَعُهَا حَيَاءً مِنْ أَهْلِهَا لَهُ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ قَالَ: «أَجْرٌ وَاحِدٌ بَلْ لَهُ أَجْرَانِ أَجْرٌ لِصَلَاتِهِ عَلَى أَخِيهِ وَأَجْرٌ لِصِلَتِهِ الْحَيِّ»[٢٧١].

قال معمر: لقد طلبنا هذا الشأن ومالنا فيه نية، ثم رزقنا الله النية من بعد.

قال معمر بن راشد : كان يقال: إن الرجل يطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله.

قلت: نعم، يطلبه أولا، والحامل له حب العلم، وحب إزالة الجهل عنه، وحب الوظائف، ونحو ذلك.

ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه، ولا صدق النية، فإذا علم، حاسب نفسه، وخاف من وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم.

وعلامة ذلك أنه يقصر من الدعاوي وحب المناظرة، ومن قصد التكثر بعلمه، ويزري على نفسه، فإن تكثر بعلمه، أو قال: أنا أعلم من فلان فبعدا له [٢٧٢] .

---

[٢٧٠] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٤)

[٢٧١] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٤)

ومما يعين على الإخلاص العمل في السر فقد كان أبو وائل إذا خلا سبح ولو جعلت له الدنيا على أن يفعل ذلك وأحد يراه لم يفعل

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، قَالَ: لَقَدْ أَدْرَكْتُ رِجَالًا كَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ رَأْسُهُ وَرَأْسُ امْرَأَتِهِ عَلَى وِسَادٍ وَاحِدٍ قَدْ بَلَّ مَا تَحْتَ خَدِّهِ مِنْ دُمُوعِهِ لَا تَشْعُرُ بِهِ امْرَأَتُهُ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُ رِجَالًا كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُومُ فِي الصَّفِّ فَتَسِيلُ دُمُوعُهُ عَلَى خَدِّهِ لَا يَشْعُرُ الَّذِي إِلَى جَنْبِهِ[٢٧٣] وكان رضى الله عنه يصوم الدهر ويخفي ذلك [٢٧٤].

وذا كان الشَّيْطَان يَدْعُو إِلَى ترك الطَّاعَات فَإِن غَلبه العَبْد وَقصد الطَّاعَة الَّتِي هِيَ أولى من غَيرهَا أخطر لَهُ الرِّيَاء ليفسدها عَلَيْهِ فَإِن لم يطعه أَوْهمهُ أنه مراء وَأَن ترك الطَّاعَة بالرياء أولى من فعلهَا مَعَ الرِّيَاء فيدع الْعَمَل خيفة من الرِّيَاء لِأَن الشَّيْطَان أَوْهمهُ أَن ترك الْعَمَل خيفة الرِّيَاء إخلاص والشيطان كَاذِب فِي إيهامه إِذْ لَيْسَ ترك الْعَمَل خوف الرِّيَاء إخلاص وَإِنَّمَا الْإِخْلَاص إِيقَاع الطَّاعَة خَالِصَة لله تَعَالَى دون النَّاس وَقد تتْرك الْعَمَل مَخَافَة الرِّيَاء فيوهمك الشَّيْطَان أَنَّك مراء بترك الْعَمَل لينغص عَلَيْك الْعَيْش فِيمَا تعمله وَفِيمَا تتركه ،إذا حضر الشَّيْطَان الرِّيَاء فِي شَيْء من الطَّاعَات كَالصَّلَاةِ مثلا أَن لَا يلْتَفت إِلَيْهِ وَلَكِن يزِيد فِي تَحْسِين صلَاته بخضوعها وخشوعها وإتمام سجودها وركوعها إرغاما للشَّيْطَان وَهَذَا هُوَ الْأَفْضَل لِأَنَّهُ إِذا أدمن على ذَلِك هرب مِنْهُ الشَّيْطَان لِأَن غَرَضه بالوسواس وإحضار الرِّيَاء أَن يفْسد عبَادَة الْإِنْسَان فَإِذا صَار إِحْضَاره ووسواسه سَببا

---

[٢٧٢] النبلاء ١٧/٧

[٢٧٣] الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٦١)

[٢٧٤] صفة الصفوة :١٦/٢ ، ١٦٣/٢

للتكثير من الطَّاعَة هرب مِمَّن يفعل ذَلِك لِأَن سَعْيه فِي ذَلِك سَبَب لإرغامه بتحسين الطَّاعَة وتكميل الْعِبَادَة وَذَلِكَ مرض للرحمن مرغم للشَّيْطَان[٢٧٥].

كلمات جامعة حول الإخلاص

قال الجنيد : الإخلاص سر بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله[٢٧٦].

قال أبو القاسم القُشَيريّ رحمه اللّه قال: الإخلاصُ إفرادُ الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يُريد بطاعته التقرّب إلى اللّه سبحانه دون شيء آخر: من تَصنعٍ لمخلوق، أو اكتساب محمَدةٍ عند الناس، أو محبّة مدحٍ من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرّب إلى اللّه تعالى[٢٧٧]. وقال أبو علي الدقاق ﷺ قال: الإخلاصُ: التوقِّي عن ملاحظة الخلق، والصدق: التنقِّي عن مطاوعة النفس، فالمخلصُ لا رياء له، والصادقُ لا إعجابَ له. وقال ذو النون المصري رحمه اللّه : ثلاثٌ من علامات الإخلاص: استواءُ المدح والذمّ من العامَّة، ونسيانُ رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاءُ ثواب العمل في الآخرة[٢٧٨].

---

[٢٧٥] مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل (ص٦٩، ٧٠)

[٢٧٦] القرطبي٢/١٤٦

[٢٧٧] الرسالة القشيرية صـ١٦٢ ، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ للإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي مكتة التبي القاهرة صـ٥، ٧

[٢٧٨] الرسالة القشيرية صـ١٦٢ ، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صلى الله عليه وسلم للإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي مكتلة المتنبي القاهرة صـ٥، ٧

وعن حُذيفة المرْعشيِّ رحمه اللّه قال: الإخلاصُ أن تستوي أفعالُ العبد في الظاهر والباطن.قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى لو اجتهدت كل الجهد على ان ترضي الناس كلهم فلا سبيل فاخلص عملك ونيتك لله عز وجل   وقال لا يعرف الرياء الا المخلصون[279] .وعن مطرف بن عبد الله قال: صلاح القلب بصلاح العمل وصلاح العمل بصلاح النية. وقال الفضيل بن عياض:إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك[280] .

الرياء هو الشرك الأصغر :

وهو أخفى من دبيب النمل فلنحذره ونستعذ بالله منه

وقد ذم الله المرائين وحذر من فعلهم قال تعالى " يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)"النساء.

"الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ (٦) الماعون . الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنَافِقِ وَالْمُرَائِي أَنَّ الْمُنَافِقَ هُوَ الْمُظْهِرُ لِلْإِيمَانِ الْمُبْطِنُ لِلْكُفْرِ، وَالْمُرَائِي الْمُظْهِرُ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِنْ زِيَادَةِ خُشُوعٍ لِيَعْتَقِدَ فِيهِ مَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ مُتَدَيِّنٌ، أَوْ تَقُولُ: الْمُنَافِقُ لَا يُصَلِّي سِرًّا وَالْمُرَائِي تَكُونُ صَلَاتُهُ عِنْدَ النَّاسِ أَحْسَنَ[281] .

[279] تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/٧٥

[280] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: ص ١٣، ١٤ دار الريان للتراث ١٤٠٧ ، ١٩٨٧

[281] تفسير الرازي (٣٢/ ٣٠٤)

دركات الرياء:

شَرّ دركات الرِّيَاء الرِّيَاء بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَان وَذَلِكَ رِيَاء الْمُنَافِقين.ويليه الرِّيَاء بالفرائض كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاة وَالْحج وَغير ذَلِك مِمَّا فَرْضه الله عز وَجل على عباده فَيَأْتِي بِهِ العَبْد لأجل الرِّيَاء تصنعا للنَّاس وَكَرَاهَة للذم وحبا للحمد ، وَلَو تمكن من ذَلِك جَمِيعه لما فعل شَيْئا ، ويليه الرِّيَاء بِمَا تَأَكد فِي الشَّرْع كَصَلَاة جمَاعَة وقرى الضَّيْف وعيادة المرضى وتشييع الْجَنَائِز يَأْتِي ذَلِك لأجل النَّاس كي لَا يذم بترك مَا سنه الله تَعَالَى وأكده وَإِرَادَة حمدهم وَلَو أمكنه أَن يتْرك ذَلِك كُله لتَركه،وَقد يرائي أحدهم بالورع وَإِظْهَار النّسك فيطيل الصمت وَيتْرك الاغتياب وَينْهى عَنهُ وَإِذا ظَهرت مِنْهُ زلَّة أظهر التوجع والتندم والحزن والكآبة ويستحل مِمَّن ظلمه وَالله تَعَالَى يعلم أَنه لَو تمكن من ترك ذَلِك كُله أَو من ترك بعضه لتَركه غير مبال بِتَرْكِهِ ،ويليه الَّذِي يكمل الْفَرَائِض بسننها كإطالة الرُّكُوع وَالسُّجُود يَفْعَله إِذا رَآهُ النَّاس ويتركه إِذا لم يروه وَكَذَلِكَ يُؤَدِّي الزَّكَاة من أَجود أَمْوَاله وَلَوْلَا النَّاس لاقتصر على الْقدر المجزئ ،وَكَذَلِكَ يصمت فِي الصَّوْم عَن الْغَيْبَة وَالْكذب وَلَوْلَا الرِّيَاء لما فعل شَيْئا من ذَلِك،ويليه الْمُبَادرَة إِلَى التَّكْبِيرَة الأولى وَرفع الْيَدَيْنِ لَا يفعل ذَلِك إِلَّا رِيَاء وَلَو خلا بِصَلَاتِهِ لم يفعل شَيْئا من ذَلِك[٢٨٢]

[٢٨٢] مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل للإمام عزالدين بن عبدالسلام (ص: ٧٧، ٧٨)

أهم المراجع

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي دار إحياء التراث العربي بيروت.

*الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ للإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي مكتة التنبي القاهرة

* الإمام القاسمي ومنهجه في التفسير" رسالتي للعالمية تحت إشراف العلامة الدكتور /إبراهيم خليفة مخطوطة بكلية أصول الدين القاهرة.

*الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن المعروف بابن أبي الدنيا تحقيق: صلاح بن عايض الشلاحي الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

* البحر المحيط للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي

تحقيق مجموعة من دارالنشر دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م

* البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة : الأولى ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

* التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤

* تفسير القرآن للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني تحقيق د/ مصطفى مسلم محمد مكتبة الرشد الرياض الأولى ١٤١٠

* التفسير الموضوعي في القرآن الكريم للدكتور أحمد السيد الكومي والدكتور محمد أحمد قاسم

* التوبة لابن أبي الدنيا المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا تحقيق وتعليق: مجدي السيد إبراهيم.دار النشر: مكتبة القرآن

*حاشية القونوى على البيضاوي للإمام عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي ومعه حاشية ابن التمجيد للإمام مصلح الدين مصطفي بن إبراهيم الرومي الحنفي حققه عبد الله محمود محمد عمر الطبعة الأولى١٤٢٢ هـ-٢٠٠١م.دار الكتب العلمية بيروت .

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

* الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.للإمام أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي تحقيق د/ أحمد محمد الخراط دار القلم دمشق ط ١ -١٩٨٦

*- الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود

المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي ، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)

عني به: بوجمعة عبد القادر مكري ومحمد شادي مصطفى عربش

الناشر: دار المنهاج - جدة

الطبعة: الأولى - ١٤٢٦ هـ

* روح البيان إسماعيل حقي البروسوي دار إحياء التراث العربي بيروت .
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.
للعلامة شهاب الدين محمود الألوسي المنيرية الطبعة الأولى – سنة ١٩٨٥ .

* زاد المهاجر إلى ربه المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)

المحقق: د. محمد جميل غازي الناشر: مكتبة المدني - جدة

* الزهد الكبير للبيهقي مؤسسة الثقافية بيروت ١٩٩٦.

* زهرة التفاسير المؤلف: محمد أبو زهرة دار النشر: دار الفكر العربي

* صحيح البخاري (معه فتح الباري لابن حجر تحقيق محب الدين الخطيب دار الريان للتراث

* صحيح مسلم بشرح النووي . . . . طبعة الحلبي

*عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي(حاشية الشهاب) للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي.الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل (منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب)

المؤلف: سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (المتوفى: ١٢٠٤هـ) الناشر: دار الفكر

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري تحقيق عبد الرزاق المهدي الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

* مباحث في التفسير الموضوعي د مصطفى مسلم دار القلم دمشق١٤٢١ – ٢٠٠٠

* المجالسة وجواهر العلم المؤلف : أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المحقق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان الناشر : جمعية التربية الإسلامية (البحرين) ، دار ابن حزم بيروت تاريخ النشر : ١٤١٩هـ

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.للحافظ نور الدين الهيثمي بتحرير الحافظين(العراقي وابن حجر) الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٢ دار الكتاب العربي . بيروت.

* محاسن التأويل للإمام جمال الدين القاسمي علق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ط الحلبي .

* المحرر الوجيز القاضي أبي محمد عبد الحميد بن غالب ابن عطية الأندلسي ط مكتبة ابن تيمية القاهرة : ١٤١٣ ، ١٩٩٢ تحقيق المجلس العلمي بفاس .

* المدخل إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للأستاذ الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

*المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي

*معنى لا إله إلا الله للإمام محمد بن عبدالله بن بهادر أبو عبدالله بدر الدين الزركشي الناشر : دار الإعتصام – القاهرة الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ تحقيق : علي محي الدين علي القره داغي

* مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي الناشر دار الكتب العلمية ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

*منهج التفسير الموضوعي في القرآن الدكتور سامر رشواني دار الملتقى

* نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى دار الكتب العلمية . بيروت الثانية / ٢٠٠٣ م . ١٤٢٤ هـ

الفهرس

١-الأدلة الكونية

الأدلة النفسية

٣- الأدلة العقلية

التوبة في ضوء القرآن الكريم

تعريفها :

حكمها

عناية القرآن بالتوبة والتائبين

في رحاب اسمه تعالى التواب

معنى تبديل السيئات حسنات:

دعوة القرآن للمسارعة والتعجيل بالتوبة قبل فوات الأوان

دعوة القرآن للمسارعة والتعجيل بالتوبة قبل فوات الأوان

دعوة القرآن للمسارعة والتعجيل بالتوبة قبل فوات الأوان

دعوة القرآن للمسارعة والتعجيل بالتوبة قبل فوات الأوان

دعوة القرآن للمسارعة والتعجيل بالتوبة قبل فوات الأوان

شروطها

التَّوْبَةُ النَّصُوحُ

تيسير الله٨ تعالى توبة هذه الأمة

درجات التائبين

التوبة عامة من كل الذنوب صغيرها وكبيرها

الفرق بين التوبة و الاستغفار

تتمة عن فضل الاستغفار

سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ

تكرار الذنب وتكرار التوبة

محقرات الذنوب

أرجى آية في القرآن الكريم

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

أهميته وفضله

حكمه:-

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب بالإجماع*- بيان خطأ من لم يأمر بالعروف وينهى عن المنكر:-

*- مجالات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:-

*– قصة أصحاب القرية الذين اعتدوا في السبت:

نماذج يقتدى بهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر:

*–من أجل صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر النصيحة في الدين أداب وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

صور ومواقف للسلف في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

*– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للوالدين:

الإخلاص في ضوء القرآن الكريم

*– الإخلاص شرط لقبول العمل:

بين النية والإخلاص:

كلمات جامعة حول الإخلاص

الرياء هو الشرك الأصغر :

دركات الرياء: